الفهرس

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة ، تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٩٧٦٩

العدد ٦٠٩ | الاثنين ١٤ من ذي القعدة سنة ١٣٦٩ — ٢٨ من أغسطس سنة ١٩٥٠ | السنة الثانية عشرة

صورة من الجهاد في الشرق بمناسبة إعلان وحدة الدولة الأندونيسية يوم ١٧ أغسطس !

اندونيسيا اليـــوم

بحث تاريخي سياسي

للأستاذ محمد جنيدي



الحديث اليوم عن التطورات [illegible] هو الحديث عن الحركات القومية لشعوب الإسلامية في جميع أنحاء المعمورة للتحرر من الاستعمار الغربي .

وتدخل اليوم إندونيسيا في عهد جديد ، عهد الوحدة ، عهد الاتحاد ! فقد ألغيت الولايات المتحدة الأندونيسية ، وأصبحت إندونيسيا حكومة الجمهورية الإندونيسية .

وحسبي إلى أن أقدم للقارىء الكريم في هذا المقال الموجز بحثاً تاريخياً سياسياً يتعلق بالوضع الإندونيسي التاريخي والسياسي منذ بدأ الاستعمار الغربي حتى اليوم ، لتزداد ثقافته العامة ، وإيقفه على مدى قوة الحركات التحررية في الشرق الأقصى .

إندونيسيا هي مجموعة جزائر الهند الشرقية ، وتضم ما يزيد على ألفي جزيرة ، منتشرة بين القارة الآسيوية والقارة الاسترالية . وأهم هذه الجزائر من ناحية السكان والإنتاج الزراعي والمعدني والتقدم الثقافة والعلوم ، جزر جاوا وسومطرا وبورنيو وسليبس . أما جزيرة جاوا فهي مركز الثقافة والآداب ، ومهد الحركات القومية ، ويجتمع الأوربيين من مستعمرين ورجال تجارة وصناعة وعلوم ، [illegible] في الحضارة والمدنية ، ويبلغ عدد [illegible] نسمة .

وتمثل اليوم جزيرة جاوا المكانة الممتازة لبلدان الشرق الأقصى ، فهي واقعة في موقع جغرافي ممتاز ، وغاصة بالسكان وعامرة بالمصانع والمعامل ، وزاخرة بدور العلوم والمعارف ، وفيها عاصمة الجمهورية الإندونيسية ودور الوزارات .

ومن أهم إنتاجها الزراعي : الأرز ، وقصب السكر ، والشاي ، والكينا ، والمطاط ، والنارجيل ، والدخان . وأهم إنتاجها المعدني البترول . وقد رسمت الحكومة الإندونيسية سياستها الإنشائية العمرانية ، وقررت جعل جزيرة جاوا مركزاً سياسياً عاماً للجزر الإندونيسية ، كما قررت ترحيل بعض سكانها إلى جزيرة سومطرا ، فيمكن بذلك تكييف الحياة الاقتصادية لهذه الجزيرة حسب حاجات عدد السكان .

وأما جزيرة سومطرا فهي في الدرجة الثانية بعد جزيرة جاوا من حيث الحضارة والمدنية ، لأن المستعمرين لم يلتفتوا إليها كثيراً ، فلم يستغلوا ثرواتها المعدنية والنباتية إلا قليلاً ، وتقدم الحياة الثقافية والعمرانية والاقتصادية في شرقها

وغربها ، وذلك لخصب التربة في شرقها ، ولنشاط السكان في غربها .

وإذا نظرنا إلى جزيرة سومطرا من ناحية الاستغلال لمعادنها ونباتاتها ، فيمكن أن نعتبرها بلاداً بكراً ، لم تستغل بعد ، فهي غنية بالمعادن والنباتات الهامة التي يحتاج إليها العالم ، وتوجد في أواسطها آبار البترول ، كما توجد في شرقها حقول المطاط ، وكما توجد في غربها مناجم الفحم الحجري ، وتملك الشركات الهولندية جل هذه الحقول والمناجم ، وستكون هذه الجزيرة الهدف الأول لبرنامج الانتعاش الذي قررت الحكومة الإندونيسية تنفيذه في الوقت الحاضر ، وقد جلبت إليها فعلا المعدات والآلات الزراعية من الفليبين ، ورحبت الحكومة الإندونيسية باستغلال رءوس الأموال الأجنبية فيها ، لتنتعش الجزيرة اقتصادياً وعمرانياً . ويبلغ عدد سكانها عشرة ملايين نسمة .

وأما جزيرة سليبيس فتقع في شرق إندونيسيا ، وتتبعها عدة جزر صغيرة ، وتقع في شمال هذه الجزيرة مقاطعة (منادو) ، وهي مقاطعة يسكنها المسيحيون الإندونيسيون ، ويمتازون عن بقية سكان هذه الجزيرة بالتحضر والثقافة ، إذ أن هولندا لما استعمرت إندونيسيا [illegible] لهم ، كما أفسحت المجال لسكان ولاية (مكاسر) ، ويوجد في جنوب هذه الولاية مقاطعة أخرى هي مقاطعة (أمبون) ، وسكانها كإخوانهم سكان مقاطعة (منادو) من حيث الثقافة والتعليم ! وخلال العهد الهولندي السابق كانت قوات جيش حكومة الهند الشرقية منتخبين من سكان مقاطعة (منادو) و (أمبون) ، لثقة هولندا في ولائهم لها ، ولاندماجهم في البعثات الهولندية في إندونيسيا ، ولرابطة العقيدة الدينية . وقد استغل الهولنديون هذا الولاء ، وهذه الرابطة فبثوا روح التفرقة والبغض والكراهية بين سكان هاتين المقاطعتين وبين إخوانهم الإندونيسيين سكان الجزر الأخرى الذين يدينون بالعقيدة الإسلامية . ولا ننسى أن هؤلاء الإندونيسيين قد لعبوا دوراً هاماً في إرشاد السلطة الهولندية في مناهضة الحركات القومية خلال أربعين عاماً (م ١٩٠٨ — ١٩٤٨) ، فقد كانوا البوليس الحربي لحكومة الهند الشرقية ، وكانوا يمثلون العطرسة العسكرية المستعمرة . وبعد أن أعلنت إندونيسيا استقلالها كان بعض زعماء ولاية ملوكو وسليبيس من سكان مقاطعة (منادو) و (أمبون) كالدكتور لينا ، والدكتور راتولانجي ، والدكتور هار هاري ، والمهندس بانوجيا ، وكانوا الدعامة الأولى في صرح الاستقلال والأساس الأول في بناء الجمهورية . وقد غدا جيش حكومة الهند الشرقية الذي يشكل السواد الأعظم منه سكان مقاطعة (أمبون) و (منادو) مندمجاً في جيش الجمهورية الإندونيسية عن رغبة وإخلاص في خدمة الجمهورية التي ترمز إلى الديموقراطية الحقة ، وإلى المساواة التامة بين جميع سكان إندونيسيا العظمى ! ...

ومن أهم إنتاج جزيرة سليبيس «التوابل» ، وقد اشتهرت بها منذ عهود سحيقة ، وهذه «التوابل» هي مصدر البلاء لأندونيسيا ، إذ وصل إليها الأوربيون في القرن السادس عشر ، وصاروا ينقلون «التوابل» منها عبر الشرق الأدنى إلى أوربا ، ثم توسعت تجارة «التوابل» فأسست لها شركات إسبانية وبرتغالية وهولندية وانكليزية ، ثم اتحدت الشركات الهولندية في بعضها وكونت (شركة الهند الشرقية) في عام ١٦٠٥ . وتركزت بذلك أقدام الهولنديين في إندونيسيا ، وعقدوا بعض الاتفاقات التجارية مع [illegible] جزيرة جاوا وأمرائها ، وجعلوا من مدينة (جاكرتا) مركزاً رئيسياً للتجارة الأوربية . ولما سلمت الشركة أمورها إلى الحكومة الهولندية في القرن الثامن عشر ، وأصبحت أندونيسيا مستعمرة هولندية ، أبدل الهولنديون اسم المدينة (جاكرتا) إلى اسم هولندي هو (باتافيا) ، وهو اسم لمقاطعة في هولندا ، ثم أعيد الاسم الأول إلى هذه المدينة بعد أن تحررت أندونيسيا في السابع عشر من شهر أغسطس عام ١٩٤٥ .

والحياة الثقافية والزراعية في جزيرة (سليبس) تتقدم بخطى ثابتة ، وهي أحسن الجزر الأندونيسية الواقعة في شرق أندونيسيا من حيث الحضارة والمدنية . ولما عقدت اتفاقية لنجارجاتي بين الحكومة الأندونيسية والحكومة الهولندية رفضت هولندا أن تضم الجمهورية الأندونيسية جزيرة سليبس . وقد شكلت فيها حكومة أندونيسية صورية لا حيلة لها ولا حول ولا قوة . وفي هذه الجزيرة أباد الهولنديون المستعمرون بقيادة الكابتن (وسترلنج) الهولندي أربعين ألفاً من الأندونيسيين في عام ١٩٤٦ ...

ولم تستطع حكومة أندونيسيا الشرقية التي أقامها الهولنديون تحمل مسئولية هذه الإدارة. واحتجت الحكومة الأندونيسية لدى الحكومة الهولندية على ما قامت به الجيوش الهولندية من الفظائع التي تزيد عن الفظائع النازية في جزيرة سليبس، ولا تزال هذه المسألة الخطيرة معلقة بين الحكومة الأندونيسية والحكومة الهولندية، وستثار في يوم من الأيام ... ويبلغ عدد سكان هذه الجزيرة اثني عشر مليون نسمة.

وهناك الجزيرة الرابعة التي تعتبر إحدى الجزر الأندونيسية الكبرى، وهي جزيرة (بورنيو)، وهي أكبر جزيرة في العالم. كانت تستعمرها هولندا وانكلترا، وقد زال الحكم الهولندي فعاد الجزء الهولندي إلى حظيرة الجمهورية الأندونيسية. وأما الجزء الانكليزي وهو يشمل الشمال الغربي لهذه الجزيرة ويعرف بمقاطعة (سراواك) فلا يزال تحت النفوذ الانكليزي.

والحياة الثقافية والصناعية في هذه الجزيرة لم تتقدم بعد، برغم وجود مادتين حيويتين للعالم، وهما الذهب والبترول. وقد بدئ في استخراج البترول [illegible] في نهاية القرن التاسع عشر، فاكتشف [illegible] شرق هذه الجزيرة حقولاً للبترول. وتعتبر مدينة (تاراكان) الواقعة في شرق هذه الجزيرة أكبر مصدر للبترول في الشرق الأقصى، ففيها حقول البترول الواسعة، وفيها معامل تكريره الضخمة، ومنها كانت هولندا والشركات الاحتكارية الغربية تصدر البترول إلى أوربا وأمريكا.. وعندما بدأت هولندا تنسحب من أندونيسيا في أوائل عام ١٩٤٢ حطمت حقول البترول وبعض معامل تكريره كيلا يستغلها اليابانيون في أعمالهم الحربية.

ومدينة (تاراكان) هي أول مدينة احتلتها القوات المتحالفة من القوات اليابانية خلال معركة الشرق الأقصى التي أدت إلى انهيار اليابان في أغسطس عام ١٩٤٥. وقد احتلتها القوات الاسترالية ثم سلمتها للقوات الهولندية التي كانت سائرة خلف القوات المتحدة!.. ويظهر من هذا التسليم نية الدول الكبرى نحو استعمار الشرق واستعباده!.. فهولندا التي انسحبت من أندونيسيا إثر نزول القوات اليابانية فيها، لم يبق لها أية سلطة أو سيادة على أندونيسيا.

ولكن الاستعمار الغربي يحاول بقوة السلاح إعادة السلطة الهولندية إلى أندونيسيا، لتحتفظ له بمركزه السياسي والاقتصادي؛ وقد أثبتت الحوادث الكبرى التي حدثت في أندونيسيا بعد إعلان استقلالها خطأ هذا الرأي. فقد أيدت القوات المتحالفة الجيوش الهولندية في احتلال بعض المدن الأندونيسية الكبرى وتثبيت أقدامها في الجزائر الأندونيسية، مما أدى إلى عرقلة نمو الحياة الأندونيسية الحديثة، حياة الحرية والاستقلال. فحدثت الحوادث العسكرية وحرب العصابات بين الفريقين — الأندونيسية والهولندية — واستمرت الاضطرابات في جميع أنحاء أندونيسيا خمس سنوات.

والمادة الثانية من المواد الهامة في هذه الجزيرة هي الذهب. وتوجد في جنوب الجزيرة مناجم الذهب وتستغلها الشركات الغربية. وتدرس الحكومة الأندونيسية الآن السياسة التي ستتبعها إزاء هذه الشركات الاحتكارية التي تتحكم في المرافق العامة في أهم المدن الأندونيسية. والنية متجهة نحو تأميم الشركات والمصانع والمعامل التي تحتاج إليها الدولة في أعمالها الحربية والمدنية، وتعويض أصحابها نقداً، [illegible] الأخرى لنظم تحفظ حقوق الواطنين وأصحاب الشركات.

ذكرت آنفاً أن الحياة الثقافية في جزيرة بورنيو لم تتقدم بعد، والسبب في ذلك هو السياسة الاستعمارية الرامية إلى بقاء الشعب بعيداً عن نور العلم. وقد ثبت فعلاً أن بعض رجال التعليم الأندونيسيين حاولوا إدخال التعليم الحديث في هذه الجزيرة فوجدوا معارضة من الحكومة الهولندية، بدعوى إثارة الأفكار ضد سياستها. وكانت هولندا تصرف على التعليم في أندونيسيا جزءاً بسيطاً من ميزانية حكومة الهند الشرقية. وعلى الواردات تعتز بها هولندا الأراضي الواطئة وتعطيها مروجاً خضراء... وقد أشار الدكتور موكرجو حين بدأ جهاده السياسي إلى الأموال الطائلة التي تسحبها هولندا من أندونيسيا قائلاً: «لو جمعنا جسراً من ذهب من الأموال الأندونيسية التي سحبتها الحكومة الهولندية إلى هولندا من أندونيسيا، حيث يمتد الجسر من أندونيسيا إلى هولندا لكفى!) ويبلغ عدد سكان هذه الجزيرة مليون نسمة.

محمد [illegible]

المؤرخ الجغرافى المسعودى

للأستاذ على أدهم

بين التاريخ والجغرافية علاقة صميمة ورابطة وثيقة ، جعلت بعض المفكرين يذهبون إلى أن الفهم الصادق للتاريخ والتمييز الصحيح لا يكونان إلا عن طريق البحوث الجغرافية ، وآمن بعضهم وصدق بالجبرية الجغرافية ، وحسبها وحدها كافية لجلاء ما غمض من أسبابه واستسرت دوافعه من أحداث التاريخ وأطواره . وقد عارض هذا الرأى وفنده وأظهر بطلانه المؤرخ المفكر توينبى[1] . وقد شغلت مشكلة علاقة الإنسان ببيئته اليونان القدماء ، وبدا لأفلاطون أن يصدر حكماً حاسماً فى الموضوع الأثير نزعته المثالية فقال : « إن البلاد لا تملك الناس ، وإنما الناس هم الذين يملكون البلاد »[2] والواقع أن البيئة لم تسيطر قط على الإنسان سيطرة مطلقة ، ولكن الإنسان مع ذلك لا يستطيع أن يتغلب على تأثيرها تغلباً تاماً . وأوضح مزايا الجغرافية فى التاريخ أنها تدرس دراسة مستوعبة دقيقة علمية أرضية بأحداثها الخاصة وطرائقها الفنية العملية — مجالات النشاط الإنسانى ومواقع الحوادث التاريخية ؛ وإبراز خصائص هذه المجالات ومميزات هذه المواقع لا يعرض على أبصارنا اللون المحلى لهذه المجالات والمواقع فحسب ؛ وإنما يرينا كذلك كيف تأثر بها النشاط الإنسانى والحوادث التاريخية ؛ ومما يلاحظ فى عالم الأدب أن فحول الروائيين الواقعيين مثل بلزاك وفلوبير وغيرهما يتحرون الدقة فى توصيف البيئة ورسم الأمكنة والمواقع التى تدور فيها حوادث رواياتهم وأقاصيصهم حتى يشعر القارىء بالعلاقة الأكيدة بين طبيعة المكان والحوادث والرواية ؛ وكثيراً ما تشبه الجغرافية بالمسرح ويشبه التاريخ بالرواية التمثيلية ، وهو تشبيه تعوزه الدقة ؛ وذلك لأن الرواية التمثيلية تصلح للتمثيل على مختلف المسارح ، ولكن روايات التاريخ لا تمثل سوى مرة واحدة على مسرحها الخاص ، وهى تتأثر إلى حد ما بخصائص هذا المسرح ، فرواية نابليون مثلاً فى أسبانيا أو روسيا أو مصر لا يمكن أن نتمثلها إلا متأثرة بمسرح حوادثها فى أسبانيا وروسيا ومصر ؛ ولا نزاع فى أن طبيعة البلاد الأسبانية أو السهوب الروسية أو الأراضى المصرية كان لها أثر واضح فى إخراج الرواية وتمثيلها .

ودراسة الجغرافية تمنحنا دراسة عامل هام من العوامل التى تعمل فى تكوين التاريخ ونسج خيوطه ، والمؤرخ يحاول أن يصور أعمال الناس ويكشف عن دخائل الفكر البشرى . وإذا أجاد الاستقصاء وأمعن فى تحرى الحق ومعرفة الواقع وجد نفسه مضطراً إلى الإفادة من جهود الكثيرين الذين يعملون فى مناطق أخرى قريبة من منطقة بحثه ؛ فهو فى حاجة إلى الإلمام بجهود الباحثين فى أصول السلالات والشعوب والأجناس والباحثين عن مناشىء اللغات والعادات والأديان والمعتقدات ، وكذلك هو فى حاجة إلى الاطلاع على النتائج التى ينتهى إليها الباحثون فى طبائع الأمكنة والبيئات وما توالى عليها من تغيرات ، ومن الواضح أن المؤرخ يستطيع أن يعمق دراسته ويكمل تجاربه وخبرته بفهم الناحية الجغرافية لمشكلاته التاريخية ، لأن التفكير الإنسانى أو العمل الإنسانى لا ينشأ ويتكون فى الفراغ ، وإنما لا بد له من بيئة تؤثر فيه تأثيرها وتطبعه بطابعها .

---

(١) راجع من صفحة ٥٥ إلى صفحة ٥٩ من مختصر كتابه « دراسة التاريخ » "Study of History" .

(٢) نقل هذا الرأى عن أفلاطون العلامة ألفرد كيرشوف فى صفحة ٣ من كتابه « الإنسان والأرض » Man and Earth .

ولقد ذهب بعض المفكرين إلى أن التاريخ يبدأ حيث ينتهي عمل الجغرافية ، لأن الجغرافية تتناول الحقائق الطبيعية ، ولكن هذا التصور للجغرافية يحتويه النقص ؛ لحقيقة أن الجغرافية تدرس البلاد والأقطار من مختلف نواحيها وتحاول أن تتفهم علاقاتها المعقدة ، وتشمل ذلك بضرورة الحال دراسة الإنسان ، لأن الإنسان عامل في الأرض لا يمكن تجاهله ؛ فالتاريخ والجغرافية كلاهما في حاجة إلى الآخر ، وقد كانت الجغرافية قديماً تعد المكان وتهيئ المسرح وتمهد بذلك ، ولكن الإنسان استطاع أخيراً أن يكون له أثره في إعداد المكان وتهيئة المسرح .

فالتاريخ في أكثر الأحيان يفيد من الجغرافية ويحاول أن يلائمها . وهيرودوت نفسه الذي يعتبره اليونانيون أبا التاريخ يلتقي فيه المؤرخ والجغرافي ، فقد كان رحالة كثير الأسفار ، وقد طاف في أقطار الأرض المعروفة في عهده ، فزار عدة جزر من مدينة هليكارناس التي ولد بها ببلاد اليونان ، وزار مصر ، وجال في [illegible] ، وزار بلاد الفينيقيين ، وزار بابل وما حولها ، وعاش حيناً في بلاد الفرس ، وطاف بسواحل آسيا الصغرى ، كما زار المستعمرات اليونانية في إيطاليا ، وقد وسعت هذه السياحات آفاق تفكيره ، وصقلت عقله ، وأغزرت تجاربه ، وأمدته بمعلومات وافرة ، ومكنته من الإلمام بأشياء كثيرة ومشاهدات حية ، وأطلعته على مصادر مختلفة للتاريخ ، ويسرت له استماع أخبار الرواة وقراءة الآثار المكتوبة وغير المكتوبة ، وجعلت كتابه حافلاً ممتعاً لا يمله القراء ويتذوقونه على اختلاف ثقافاتهم وتباين مداركهم ومشاكلهم .

وفي طليعة مؤرخي العرب الذين يشبهون هيرودوت في الجمع بين التاريخ والجغرافية المؤرخ الشهير علي بن الحسين المعروف بالمسعودي ، فهو مؤرخ وأخباري من الطراز الأول ؛ وهو في الوقت نفسه جغرافي راسخ القدم عالي الكعب ، وصاحب أسفار بعيدة ، وجواب أقطار نائية قاصية ؛ وقد سبق المسعودي بعض مؤرخي العرب في الجمع بين معرفة التاريخ والتمكن من الجغرافية ، مثل اليعقوبي الذي ألف كتابه المشهور في التاريخ العام وألف كذلك كتاب البلدان ، وقد جمع فيه ما عرفه بنفسه من أحوال البلدان في عصره ، لأنه عانى الأسفار من صغره ، وكان كلما رأى رجلاً من تلك البلدان بالمشرق والمغرب سأله عن وطنه ومصره وأحوال أهله وأجناسهم وعاداتهم في المأكل والمشرب ، وأبعاد البلاد ومبالغ الخراج وأخبار الفتح ، ويدون ما وصل إليه حتى ألف كتاب البلدان ؛ ومثل أبي زيد البلخي صاحب كتاب البدء والتاريخ وكتاب صور الأقاليم ؛ وكان أكثر هؤلاء المؤرخين الجغرافيين يؤلفون كتباً في التاريخ وكتباً أخرى في الجغرافية ، ولكن ميزة المسعودي أن الجغرافي يتصاحب في [illegible] المؤرخ ، فهو ينظر الأمور ويتأملها في الوقت نفسه بنواظر الجغرافي ، وهذه الصفة هي التي [illegible] بين هيرودوت بوجه خاص ، وهي ماثلة في [illegible] الذي وصلا إلينا من مؤلفاته الكثيرة وهما مروج الذهب والتنبيه والإشراف .

والمسعودي من أقدر مؤلفي القرن الرابع الهجري ومن أغزرهم مادة ، وقد قال عنه محمد بن إسحاق النديم في الفهرست إنه من أهل المغرب ، والظاهر أنه قد أخطأ في ذلك ، فقد ذكر المسعودي نفسه في الجزء الثاني من كتابه مروج الذهب ما نصه[1] : « وأوسط الأقاليم الإقليم الذي ولدنا به ، وإن كانت الأيام قد أنأت بيننا وبينه ، وساحقت مسافتنا عنه ، وولدت في قلوبنا الحنين إليه ، إذ كان وطننا ومسقطنا ؛ وهو إقليم بابل ، وقد كان هذا الإقليم عند ملوك الفرس جليلاً وقدره عظيماً ، وكانت عنايتهم إليه مصروفة ؛ وكانوا يشتون بالعراق وأكثرهم يصيفون بالجبال ، وذلك لاختصاص هذا الإقليم من كثرة مرافقه واعتدال أرضه ،

(١) راجع صفحة ١٠٥ من الجزء الثاني من كتاب مروج الذهب (الطبعة الثالثة بتحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد) .

وقشارة عيشه، ومادة الوافدين إليه، وهما دجلة والفرات، وعموم الأمن فيه، وبعد الخوف عنه، وتوسطه الأقاليم السبعة، وقد كانت الأوائل تشبهه من العالم بالقلب من الجسد، لأن أرضه من إقليم بابل الذي اشتعبت الآراء من أهله بحكمة الأمور كما يقع ذلك عن القلب، وبذلك اعتدلت ألوان أهله، واعتدلت أجسامهم، فسلموا من شقرة الروم والصقالبة، وسواد الحبشة، وغلظ البربر، وجفاء من الأمم، واجتمعت فيهم محاسن جميع الأقطار، وكما اعتدلوا في الجبلة، كذلك لطفوا في الفطنة والتمكن بمعالي الأمور، وأشرف هذا الإقليم مدينة السلام، ويعز عليّ ما أصارتني إليه الأقدار من فراق هذا المصر الذي عن بقعته فصلنا، وفي قاعته تجمعنا، لكنه الزمن الذي من شيمته الشتيت، والدهر الذي من شروطه الإبادة، ولقد أحسن أبو دلف العجلي حيث يقول:

أيا نكبة الدهر التي طوحت بنا
أيدي سبا في شرقها والمغارب
قفي بالتي نهوى فقد طرت بالتي
إليها تناهت واجتنيت المطالب

وقد ذكر الحكماء — فيما خرجنا إليه من هذا المعنى — أن من علامة وفاء المرء، ودوام عهده حنينه إلى إخوانه، وشوقه إلى أوطانه، وبكاءه على ما مضى من زمانه، وأن من علامة الرشد أن تكون النفوس إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقط رأسها تواقة، والإلف والعادة قطع الرجل نفسه لصلة وطنه، وقد قال بعض حكماء العرب: عمر الله البلدان بحب الأوطان، وقالت الهند: حرمة بلدك عليك كحرمة والديك، لأن غذاءك منهما وغذاءهما منه، وقال آخر: أولى البلدان بصبابتك بلد رضعت ماءه وطعمت غذاءه، وقال آخر: ميلك إلى موضع مولدك من كرم محتدك».

وقد أعاد هذه النغمة وضرب على هذا الوتر الحساس في كتاب «التنبيه والإشراف» فقال حينما تحدث عن العراق: «والصقع الذي مدينة السلام منه أفضل مواضع الأرض حياً في الطيب والغذاء، وذلك أن أطيب خيرات الدنيا بعد الأمن والعافية والعز والرياسة صلاح الماء والهواء، ثم أفضل أنهار العالم دجلة والفرات، وإن نازع في ذلك أهل مصر وفضلوا نيلهم، وأطيب مواضع العالم في كل الأزمنة عند قياس بعضها إلى بعض وقياس بعض البلدان إلى بعض موضع اجتماع دجلة والفرات، وذلك أن بعض المواضع يطيب صيفه ويفسد شتاؤه فساداً يمنع فيه من المكاسب المهنية والمطالب الصناعية، لشدة برده ودوام سقوط ثلجه، ومنها ما يطيب شتاؤه ويفسد صيفه حتى يشغل الحر والومد والنق والهوام عن تحصيل الرزق بالتماس والتصرف في المهن والصناعات، ويعز علينا ما دفعنا إليه من مفارقة هذا المصر الذي به مولدنا وفيه منشؤنا، فنأت الأيام بنا وساعدت مسافاتنا عنه، فبعدت الدار، وتراخى المزار، ولكنه الزمن الذي من شأنه التشتيت والدهر الذي من شروطه الإبادة، ولولا الشوق إلى الوطن والحنين إليها لم نذكر ما ذكرناه من هذه المعاني».

وواضح من هذا أنه عراقي الأصل والنشأة، وقد ذكر ياقوت في معجمه أنه من ولد الصحابي عبد الله بن مسعود، وقد جاء مصر ورحل في طلب العلم إلى أقاصي البلاد، فطاف في فارس وكرمان سنة ٣٠٩، حتى استقر في إصطخر، وفي السنة التالية قصد الهند إلى ملتان والمنصورة، ثم عطف على كنباية فصيمور فسرنديب، ومن هناك ركب البحر إلى بلاد الصين، وطاف في البحر الهندي إلى مدغشكر، وعاد إلى عمان، ورحل رحلة أخرى سنة ٣١٤ إلى ما وراء أذربيجان وجرجان، ثم إلى الشام وفلسطين، وفي سنة ٣٣٢ زار أنطاكية والثغور الشامية إلى دمشق، واستقر أخيراً بمصر، ونزل الفسطاط سنة ٣٤٥، وتوفي في السنة التالية، وقد مكنته هذه الرحلات المفيدة والأسفار المتتابعة من إجادة البحث

والاستقصاء ، وجمع المعلومات التاريخية من مظانها ، والحقائق الجغرافية من مصادرها الأصلية ؟ وكان على طول معاناته للأسفار كثير التأليف ، واسع الاطلاع متنوعه ، ولذا استطاع أن يكتب فى موضوعات شتى ويحيط بها ، والكتابان اللذان وصلا إلينا من مؤلفاته يدلان على تراحى حدود معرفته ، وتعدد جوانب تفكيره ؛ فهو يبدو فيهما باحثاً جغرافياً ومؤرخاً أخبارياً ومتكلماً جدلياً ، ملماً بالعقائد المختلفة والمذاهب المتباينة ، وفقيهاً محدثاً وأديباً بارعاً ، كثير المحفوظ حسن الاختيار لطريف النوادر شائق الأخبار ، وهو على غزارة معلوماته خفيف الظل ، جذاب الأسلوب ، ممتعاً مبدعاً ، حسن السرد ، واضح الحجة ، ليس فى أسلوبه المتدفق الجارى غموض ، ولا حشو ، ولا إملال ، بل فيه لمحات وإشراق وسلاسة وبلاغة لم يشبها التكلف ، ولم يفسدها العمل .

والظاهر أن أوفى مؤلفاته الكثيرة كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان ؛ فهو كثير الإشارة إليه والإحالة عليه ، ولكنه من الكتب المفقودة والأخبار الضائعة ، على أن كتابه الحافل المسمى « مروج الذهب ومعادن الجوهر » يكفى فى الدلالة على فضله وتمكنه وسعة نزعته .

وقد أوقف الفصول الأولى من كتابه هذا على ذكر المبدأ والخليقة وذرء البرية من آدم إلى إبراهيم ، ثم تناول الفترة بين المسيح والنبى محمد ، وأتبع ذلك بفصل عن الهند ومدد ممالكها وسيرها وآرائها فى العبادة ، وتلا ذلك فصول عن الجغرافية الطبيعية والتاريخية تحدث فيها عن الأرض والبحار ومبادىء الأنهار والجبال والأقاليم السبعة وما والاها من الكواكب ، وكثيراً ما يستطرد فى هذه الفصول ويذكر بعض الأقاصيص العجيبة والأخبار المستغربة ، وقد اختص الصين بفصل من فصول كتابه فيه تحدث عن بنائها وأخلاق أهلها وسياستهم ، وتكلم بعد ذلك عن أخبار البحار وما حولها من العجائب والأمم ومراتب الملوك ، وتناول فى فصول تالية تاريخ ملوك السريانيين وملوك الموصل ونينوى والكلدانيين والفرس الأولى ثم ملوك الطوائف الأشغانيين ثم ملوك الساسانية ، وانتقل بعد ذلك إلى أخبار اليونانيين وحروب الاسكندر وذكر الدولة الرومانية ، وقد أفرد لها ثلاثة فصول : الفصل الأول عن تاريخها قبل اعترافها بالديانة المسيحية ، والفصل الثانى عن أباطرة بزنطة السابقين لظهور الإسلام ، والفصل الثالث عن الأباطرة الذين حكموا بعد ظهور الإسلام حتى الوقت الذى ألف فيه كتابه وهو سنة ٣٣٢ هجرية ، وتحدث فى الفصول التالية عن مصر وبنائها وأخبار الأسكندرية ، ثم عن السودان وأنسابهم والصقالبة ومساكنهم والإفرنجة والجلالقة ، ثم اليمن وأنسابها وملوك الحيرة وملوك الشام ، وديانات العرب وأساطيرها ، وأخبار الكهان ، والبيوت المقدسة عند الهنود واليونان والصقالبة والفرس ، ثم التاريخ النبى محمد ونشأة الإسلام والخلفاء الراشدين والدولة الأموية والدولة العباسية حتى خلافة المطيع ، وقد انتهى من كتابته سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، أى أن تأليف هذا الكتاب القيم استغرق أربع سنوات .

ويمكن أن يستخلص من ذلك أن المسعودى قد جمع بين دفتى كتابه القيم معلومات ضخمة وأخباراً كثيرة ومشاهدات جمة ، ولكنه لم يظهر براعة ممتازة فى تنسيق هذه المعلومات ، وكانت تنقصه الحاسة الفنية التى تمكنه من أن يخرج من هذه المعلومات المتناثرة والحقائق المتكاثرة كلاً حياً متجاوب الأجزاء متناسق الأوضاع ، وكان على ما يظهر سريع التصديق ، يعوزه قليل من الشك ويقظة الملكة الناقدة ، وقد جعله ذلك يستهدف لنقدات ابن خلدون اللاذعة فى مقدمته ، وبرغم ما يتأثر به من عيوب وما فى فنه من نقص فإنه مع ذلك من مؤرخى الإسلام الأفذاذ المعدودين .

من أدهم

العامة في التحايا والمجاملات

للأستاذ أحمد طه السنوسي

.. يلحظ المرء في التحايا والمجاملات العامية أموراً غريبة وظواهر عجيبة ؛ فقد تواضع العوام على استعمال تعبيرات خاصة لهذه التحايا وتلك المجاملات دون بحث في دقة معناها أو اتجاه مرماها أو صحة أسلوبها ، وإنما هي سارية معروفة يلمس العامي حقيقة معناها ولو كان أسلوبها مفعماً بالأخطاء المعنوية أو اللفظية أو ما إلى ذلك ...

.. ففي التعزية مثلاً يقول هذا لذاك : « البقية في حياتك » ، والمفهوم من هذه العبارة أن البقية التي تبقت من حياة المتوفى ستأتي لك لتزيد في عمرك . وهذا كلام غريب لو أننا وضعناه على الأسس العقلية والمقاييس الفكرية وفي معيار الدين وميزان الحقيقة ؛ وذلك لأن المفروض في المتوفى أنه قد أكمل حياته ، أي أن حياته قد انتهت إلى هذا الحد ، فما يتبقى منها يوم ولا ساعة ولا دقيقة ، ولو تبقى شيء من ذلك لبقي المتوفى ليتم بها ، هذه من الحقائق التي [illegible] الله والدين ، والرجل العامي نفسه يعرفها ولا ينكرها لو سألته عنها ، وذلك أيضاً نفسه في [illegible] على المتوفين والأموات ، فيقول مثلاً : (فلان عمره انتهى) و (إن الأعمار محدودة بأمر الله) .. وغير ذلك من التعبيرات . فماذا إذاً يستعمل (البقية في حياتك) وهي ذات معنى يتنافى مع الذي الذي يعرفه والهدف الذي يريد أن يعبر عنه ؟

.. إن السبب في ذلك أنه تعبير تواضع عليه العامة فسرى بينهم دون تعديل أو تبديل ودون محاولة لإحداث شيء من هذا القبيل ... ولو سلمنا جدلاً بأن المتوفى يتبقى من حياته شيء لك وأنت تقف في مواقف تعزيات كثيرة ويقال لك (البقية في حياتك) مئات المرات من الأصدقاء ، والخلان والمعارف والزملاء ، والجيران وغيرهم ، فكم بقية تبقى لك وإلى متى تمتد حياتك زيادة عن عمرك المقرر وأعوامك المخطوطة في الكتاب المسطور ؟! ثم إننا لو نظرنا بعين الحقيقة إلى هذا التعبير لم نجد فيه أي معنى من معاني التعزية ، اللهم إلا في إرجاء السرور إلى الشخص الذي نعزيه بالبقية التي اقتطعناها بتعبيرنا من المتوفى لنسلمها إلى عمره وبقائه في هذه الحياة . أليس هذا يدل على تبكيت لهذا الشخص الذي نعزيه ، أي أننا نقول له : لا تحزن ولا يتطرق الشجن إلى قلبك فإنك ستتمتع بحياة طويلة نظراً لما زاد في عمرك من هذا الميت الراحل ؟.. والعجيب أن المثقف أيضاً كثيراً ما ينسى أن يدقق في هذه العبارة فيجرفه تيارها ويقولها كما يقولها الناس في مواقف التعزية والموت ..

.. ثم انظر لهذا الذي يقابلك في موسم من المواسم الكبرى كشهر رمضان مثلاً ، تجده يقول لك : (رمضان كريم) ، ولست أدري ماذا يريد بذلك التعبير ، ومن أين جاء الكرم لرمضان وهو الذي يمنع الناس من الأكل ويظل صائماً [illegible] لقمة من الخبز أو قطرة من الماء طوال ساعات النهار ؟ وإذا سلمنا بأن رمضان كريم فهل معنى ذلك أن [illegible] من صاحبها أن يذكرها فيسحبه بعض [illegible] رمضان ؟ وإن كان المراد بالكرم [illegible] أن ذلك الشهر جليل أو أن الله تعالى يكرم فيه عباده الصائمين أو أنه شهر يكثر فيه كرم الناس بعضهم لبعض ، فما دخل هذا كله في هذا الموقف ، وما معنى أن نقول عبارة كهذه في جو التحية حيث كل الناس يسلمون بأنه مبارك وجليل وكريم لأن الكرم يكثر فيه ؟... ولكن المسألة هي أن هذه عبارة استعملها الناس فسرت دون تبديل أو تحوير ...

.. والملاحظ أيضاً أن العامي في جو هذه المناسبات يلقي على ملاقيه أو زائره أو مضيفه كثيراً من التحيات والمجاملات والتسليات ، فمن (رمضان كريم) إلى (كل عام وأنتم بخير) إلى (كيف الأحوال) إلى السؤال عن الصحة وعن فلان وفلانة ، إلى غير ذلك من الأشياء ، وهو إنما يلقي كل هذا دون توقف حتى ليعجز السامع أن يرد كلا من هذه التحايا والأسئلة والتسليات ، فيكتفي بالرد على أولها وأوسطها وآخرها إن بدا له ألا يلتزم الصمت تجاه هذا السيل الجارف والتيار العنيف ...

ثم هيا نتمعن قليلاً في أسلوب العامة حين يريد الواحد منهم أن يتأسف لذنب جناه أو خطأ وقع منه فيقول : (لا مؤاخذة) وهذا التعبير حي جداً ويستعمل ويتداول في الأوساط الشعبية كثيراً ؛ وذلك يرجع إلى كثرة ما يقع من الناس من أخطاء وما يأتون من فعال تتنافى مع صيغ اللياقة وأدبية الذوق في البيوت والمصانع وفي الترام والسيارات وفي المجالس ودار الخيالة وغير ذلك من أمكنة الحياة العامة ؛ فنجد أن هذا التعبير جد غريب وجد شاذ ، فالمفروض أن قائله يعتذر فكيف به يملي على من يعتذر إليه ألا مؤاخذة على ما فعل !! إنه يجبره على ألا يؤاخذ ولا يتكلم ، والمعتذر كما هو معروف إما أن يرجو العفو عما حدث ، وإما أن يتأسف لما وقع ، ولكن (لا مؤاخذة) هذه ما فيها رجاء لعفو ولا تأسف على شيء وقع ، إنها إرغام وإجبار ، إنها أمر وإيقاف ، إنها صيغة قوة ، وصيغ الاعتذار فيها الرقة وفيها نغمة الاستعطاف ورنة الأسف والرجاء ...

ولكن المعروف أن هذا التعبير العجيب يستعمل زيادة على ذلك في ثنايا الأحاديث حين يريد المتحدث العامي أن يذكر شيئاً قبيحاً أو أمراً غير معهود [illegible] اللياقة أو الآداب المعهودة المصطلح [illegible] في جو العامة ؛ ونحن لو بحثنا هـذا التعبير في هذا الصدد أيضاً وجدناه غريباً في موضعه مخلاً في ذوقه غير ملائم المقام ؛ ذلك لأن معناه كما يتفق كل الناس الاعتذار والتأسف ، والمرء لا يتأسف قبل أن يقع منه الخطأ ، ولا يعتذر إلا إذا جاء بالمنافي للذوق أو الخارج عن حدود اللياقة والأخلاق ؛ وذلك لأن التأسف تابع للخطأ ، والاعتذار يقع عادة بعد الوقوع في ذلك الخطأ ، فكون المرء يريد أن يذكر أمراً قبيحاً أو كلاماً خارجاً عن الحدود الخلقية المتواضع عليها برغبته ومشيئته أي عن عمد ، فيعتذر قبل أن يتحدث ويتأسف لما سوف يقترفه من سقط الكلام ولغوه ، فليس لذلك الاعتذار وذاك التأسف من موضع معقول أو علة معقولة ؛ وذلك لأن الأمر الذي يجوز الاعتذار عن حدوثه لا يقع متعمداً وإلا لما وجب التأسف عليه ، وإنما هو يأتي عفواً وعن غير عمد ، لذا وجب الأسف واستحق قبول الاعتذار ، ثم ما دام العامي يحادث عامياً مثله وقد وجد لديه الدافع لأن يذكر شيئاً قبيحاً أو خارجاً عن ذوق الجماعة واحترام المجلس ، فلماذا لا يتشجع ويقول ما يريد ، ثم إنه سوف يقول هذا الذي يريد فلماذا يحفه كل حفة بعبارات التأسف ولا مؤاخذة الاعتذار ..

تعليل ذلك أن (لا مؤاخذة) هذه في هـذا الجو من المجالس وفي هذا الأسلوب من الكلام شيء يدل على احترام المجلس والجالسين فيه ، ويدل على جلال الشخصية التي تتكلم ، كما أنه دافع على انتباه الحضور ودليل على لباقة المتحدث في جذبهم إليه واستمالتهم إلى حديثه سواء أكان قبيحاً أم غير قبيح ، فصيحاً أم غير فصيح ، وتعليل ذلك أيضاً أن هذا أسلوب تواضع عليه العامة وطريقة دأب على منهاجها الآباء القوام في مجالسهم التي كانوا يعقدونها وأحاديثهم التي كانوا يقضون بها أوقاتهم ويرضون بها دوافع أنفسهم وقلوبهم ...

***

.. هذا قليل من كثير مما يستعمله العامة في تعابيرهم وكلامهم ، وأريد هنا أن أشير إلى أن بعض المثقفين وكثيراً من أنصاف المثقفين يستعملون هذه الأساليب وأمثالها دون أن [illegible] أخطاء وما يحفها من معان متباينة وما تجره إليه من [illegible] لا يرام ، والمعروف أن هنالك من الأساليب العربية [illegible] البسيطة الكثير مما يستعمل في جو المثقفين وما يمكن أن يستعمل في غير هذا الجو من أجواء ، والواجب على كل من حظي بنصيب من الثقافة أو نال قسطاً من العلوم سواء العلوم الثقافية أو العلوم الشعبية أن ينبذ تلك الأساليب التافهة كما يريد ، وأن يحقق فيما يريد أن يدلي به وأن يكون ضداً للأسباب التي دعته إلى نبذ هذه الأساليب واستعمال تلك ؛ لأن ذلك يجعله دائماً شديد اليقظة والحذر دائم التمعن والتدقيق في الأمور ، سواء أكانت تعبيرية أم عملية ، يفكر قبل أن يتحدث ويتأنى قبل أن يقدم ، ويتمعن قبل أن يدلي برأيه ويتريث قبل أن ينغمر في لجة أو في غمار وقبل أن يجرفه التيار في مجاري عدة من الأغلاط والأخطاء ...

وأما ما كان من أمر العامي ، فإنه يقتبس ما يستطيع من تعبيرات المثقف والمتعلم في مجالسه ومحادثاته ؛ وذلك يعتبره على حد تفكيره شيئاً مثالياً يدل على الاختلاط بجو المثقفين

والتطفيل والتأديب ويدل على سعة ذوقه وفكره لتقبل هذه الأساليب الخاصة، كما يدل على مساهمته في مشاركة هذه الفئات من المتأدبين والمتفننين في أساليب أحاديثهم ومجالسهم ومقابلاتهم، تزيد على ذلك الناحية النفسية، إذ يشعر العامي بفخر واعتزاز وانتفاخ أوداج حين يستطيع أن يستعمل مجاملات هذه الفئات وتحياتها وحين يستطيع أن يقلد اللهجة التي تقال بها، كما أن ذلك يجعله علماً في المجلس الذي يجلس فيه أو الجماعة التي يجتمع بها لأنه شذ عن المألوف العامي، والشذوذ مرة تسترعي الانتباه وسبيل لاحب للبروز والظهور ودافع لجذب الأنظار واهتمام الألسنة، ودافع لجنوح الآخرين إلى الاقتداء به إن وجدوا في ذلك طرافة وجمالاً وجدة، وإلى الحسد أو الضيق إن كانت القلوب تحمل حسداً أو تعمل في منافسة، وفي الحسد والنقمة دوافع شتى إلى التحادث والتثاور وإلى الثرثرة والأخذ والرد وإلى التشاجرات والاختلافات، وعلى هذا كله يقوم ركن ركين من معالم الحياة العامية في جو هذه الجماعات وهذه الجماهير من الشعب.

بيد أن الملموس أن هذه الظاهرة في جنوح العامي إلى الاقتباس من مواضعات التأديب ومجاملات المتأدبين قليلة، وذلك للمحافظة التي تسود جو العوام والاستمساك بالتقاليد المرعية والموازين العامية والأصول المتبعة والتعرف على رسوم السابقين من أبناء الشعب والعوام، ولكن هذه الظاهرة تزداد مع الأيام؛ وذلك لأن الزمن يدفع إلى التطور ويسوق إليه ركب هذا التطور، ذلك الذي يبدو ملموساً في كل مظهر من مظاهر الدنيا وخصوصاً في كل قديم من تقاليد الحياة. والذكاء عامل مهم كل الأهمية وميزة مفهومة كل الفهم في أولئك الأذكياء من العامة الذين يجدون لدى أنفسهم دوافع الاقتباس والأخذ من أجواء أهل العلم والثقافة، والجيل منهم أن يصمدوا أمام عاصفة زملائهم العامة إن أثاروها ضدهم رامين إياهم بالخروج عن حدود اللياقة والعطرسة والحذلقة والتشبه بأولئك الذين رمى بهم آباؤهم إلى المدرسة فعلمتهم معاني الفرقعات والتفاعلات وعلمتهم قراءة الكتب، وربما كان فيها من الفساد والإفساد ما لا يعلمون وما لا يريدون أن يستمعوا إليه، بيد أن ذلك أيضاً نادر، أي أنه ليست هنالك عواصف كثيرة تثار أو تهب على أولئك (المتأدبين) في مواضعات الحياة الشعبية، وذلك أيضاً بفضل التطور وبفضل دفع الزمن واندفاع الوجود وانبلاج صبح الحضارة والتقدم رويداً رويداً من احشاء الأفق وغياهب الظلمات ...

.. ولقائل أن يقول: إن تحايا العامة ومجاملاتهم قد تواضعوا عليها وتداولوها من قديم، وكل واحد منهم يفهم مدلول كل منها حتى وإن كان لا يستساغ ذوقاً أو يقبل منطقاً في جو الثقافة والتوسع في الادراك، ولا يهم أن يمحوا هذه الأساليب أو أن يصلحوها، بيد أني أستطيع أن أرد على هذا القول بأنه قد تلبي أو تتلبى ما يفرضه التطور وما تتطلبه المدنية والثقافة في عصرنا هذا، كما أنه قد تلبي أو تتناسى أن الغرض في هذه الحقبة الجديدة من الزمن أن ترقى ونسعى في رقي الفئات التي لم تنل حظاً من التوسع الإدراكي أو التفكير الثقافي؛ وحسبنا أن نعلم أن ذلك جنوح منا إلى انتشال هذه الفئات العامية من جو فيه تناقض في الحياة والمواضعات، وأزيد على ذلك ما سبق أن ذكرت من فائدة ذلك في دفع هذه الفئات إلى التحضر واليقظة وما إلى ذلك من ... التجربة ودواعي الرقي الفكري في انبلاج ... التطور في هذه الحياة، ثم إن العامي نفسه لا يشك أن ... في نفسه ومن زملائه العوام حين تذكر له تناقض أساليبه في تحياته ومجاملاته، وحين تنقد له هذه الأساليب والتعابير بما وهبت من مقدرة وما أوتيت من رجحان وما اتسم به منطقك من حجة وإقناع واساليبك من بيان وتأثير ...

... إننا لا نأسف على محو هذه النماذج العامية في الطرافة النطقية والظرف الفكري، ولا نأسف على إبادتها؛ لأن لدينا سواها مما يتقبله العقل وتستسيغه المنطق، وينسجم معه الذوق الإنساني انسجام النحل مع زهيرات الرياض؛ ولأن هذه الأساليب لم تكن تلائم الظرف والطرافة إلا حين غيط الكلام من تناقضها العجيب وشرودها للمنطق، وقبل ذلك كانت متسقة مع ذوق العامة متزنة مع منطقهم منسجمة مع ألسنتهم جارية سائرة في أجواء اختلاطهم وحياتهم غير قابلة للمناقشة والبحث والتبديل، وبصيغة أدق لم يفكر أحد منهم في غير ذلك ...!

أحمد طه السنوسي

الخليـــــل

الأستاذ عبد السميع المصرى

— ٤ —

المرأة فى شعره

لقد عاش مطران حياته عزبا ، ورغم ذلك فقد كان للمرأة أعمق الأثر فى حياته وبالتالى فى شعره ، لأنه عرفها ودرسها ، وأشاد بمكانتها بمديح تكاد لا ترى مثله فى الشعر العربى من قبله إلا نادراً .

والشعر العربى القديم فى المرأة لم يكن يعنى غالباً إلا بمفاتن جسدها ، وأنت لا تكاد تميز بين جميلات الشعر القديم لأنهن كلهن ذوات وجوه كالبدور أو الشموس ، وشعر كالليل ، وجبين كالصبح ، وخد كالورد ... إلى غير ذلك من الأوصاف التافهة الموحدة .

والمرأة فى الشعر القديم غالباً ما تكون مبهمة ، ولا تتعدى (لبنى مخضوب البنان بميل) ، أو كما قال المتنبى مشبها الدنيا بالمرأة :

فهى معشوقة على الدهر لا　　تحفظ عهداً ولا تتم وصالا
شيم الغانيات فيها فما أدرى　　لذا أنث اسمها الناس أم لا

أما مطران فقد رد للمرأة العربية كرامتها واعتبارها ، وأشاد بمكانتها من المجتمع فى شعره حتى قال :

إن لم تكن أم فلا أمة　　وإنما بالأمهات الأمم

وأول ما يلفت النظر فى شعر مطران أنه يعنى بجمال المرأة قبل جسدها ، ويهتم بجمال عقلها قبل جمال جسمها ، وما أروعه فى ذلك حين يقول :

أذلك الجبين وبلوره　　يظل أفكارها الخاطره ؟
أتلك العيون وأنوارها　　سراج لأفكارها الزاهره ؟
أتلك الشفاه وما قبلتها　　سوى الأم والطفل زائره ؟
أذاك القوام ومن حسنه　　تميل الغصون لمناظره ؟
أذاك العفاف وما مسها　　تغريه النفس الناظره ؟

أو قوله فى أخرى :

فاتنى من جمالهــا الوجه طلقاً
لا يبــاهى والقدُّ لدنا رشيقــاً
فاتنى عقلها الذى يســع الخــا
طر روحــاً وهيكلا وعروقــاً
فاتنى نظمهــا القريض كما
تنظم عقداً فى جيـــدها منسوقاً
فاتنى قلبها الذى يعشق الوجد
ولو شــاء أحسن التوفيقــا

[illegible] بالمرأة من الحالة النزعة الفاتنة فى وصف الجمال إلى واقعية قوية واضحة المعالم دقيقة الخطوط ، فتراه يقول :

لهــا شعر كالليــل يحلو سواده
بياض تهـــلل يزين المتوشحــا
وعينان كالنجمين فى حلك الدجى
هما نعمـــة الدنيـــا وشقوتها هما
وأهداب أجفـــان تخال أشعــة
مصففـــة غراء تكسى نجومهــا
ومنفرج عن خالص العاج متزن
كأن الهوى قد بث فيـــه نعيمه
وخصر إليه ينتهى رحب صدرها
وقد دق حتى خيل بالثوب أرنما
فإن أقبلت فالغصن أثقله الجنى
فمـــال قليـــلاً واستوى متقوما

وقد عرف مطران المرأة من الطريق الطبيعي .. طريق الحب .. لقد أحب مطران مخلصاً ، وملأ الحب شغاف قلبه وفراغ حياته ، وصبغ تفكيره ، ولون شعره ، حتى إنه ليخيل إلي أن الحب كان أساس حياة مطران وأن حياة مطران لم تكن إلا دعوة متصلة للمحبة .

وهو القائل :

سوى الحب لا يشفي الفؤاد المكلّما
ولا يُبرىء العاني وإن كان مؤلما
وما زال ذو القلب الخليّ من الهوى
كظمآن لا يروى له مورد ظما
هو الشعر كالتيار يكتسح الورى
بليل من الأحداث أنكر أعتما
فما أسعد الروحين أن يتلاقيا
ويقتسما فيه الأسى والتنعما
كما يتلاقى في طريق مخوفة
غريبان [illegible]
وكم عاشق يسعى وزلزاله بالورى
وقد يجلي رجاء الفضاء أنوما
كسالك وعر زاده حسن كوكب
فأرجله تدمى وعيناه في السما

ولعل قلب مطران قد هفا لكثيرات من النساء ، فقال فيهن شعراً ، لكنه لم يتعلق سوى واحدة ، ولا شك في أنه عرف غيرها ، لكنه لم يحب سواها ، ولم يخلص الهوى إلا لها .

وقصة هذا الحب طويلة ، وحوادثها منتشرة في ديوانه ، ولو أنه أفرد لها في الجزء الأول قسماً خاصاً بعنوان (قصة عاشقين) ، لكني أعتقد أن هذه القصة أطول بكثير من هذا القسم المحدد من الديوان .. إنها الشعلة التي أضحت في صدره باباً بين الشك بهذه الحبيبة ، وقد لمحها ثمة فقال :

أتدنو من لحظها نحية قلب وربما
ظنت الوجه ورداً فأتت ترشف ثغرهما

وبعد حوادثها وعمراً قصيراً له أثر في حياته كبير ، وذكرى لم تمحها الأيام .. ذكرى ذلك الحب الساذج واللهو البريء :

هل تذكرين ونحن طفلان
نمضي معاً رحلة كله نغم
إذ يجني في الكرم طفلان
يتضاحكان ورأس الكرم

• • •

هل تذكرين يومنا الحسنا
حين التقاط أطايب العنب
على امتلاءات يا غنا
وما كشفتها من الطرب

لكن الشعر لم يخل من هذه السعادة ، فاختطف هذي الطفلة صرعاً وخلف لمطران لوعة وأسى صاحباه ما بقي من العمر ، وكأن بالشعر قد غار من هذه السعادة كما يقول مطران :

[illegible] روضة نشأ
في زهرها نشر تعانقنا
في حسنين زهرة ثنا
ولدانا لنا تعانقنا
لكن الغرام مع السدى اللعب
عن سعادتنا ولم تدر
فعدت علينا غيرة القدر
أودت معاً بالعيش والأثر
واستبقيت الباقي من العمر
ذكرى ولكن التي لم
ماتت وكل شبابك بطل
ما الورى ولوث من جهلها
لا قلب يبكيها ولا مقل
بل قلبها واللطف والأمل
وصباها وطهارة القلب

وقد هاجر مطران من موطنه بسبب هذا الرزء ، كما يشير في قصيدته «مشاكاة» :

أرى مثل سهدي في الكوكب
أحلَّ به مثل ما حل بي ؟
يهيم هيامي من وجده
ويهرب من همه مهربي ؟
ويجتاز هذا الفضاء الرحيب
إلا بنا فهو لم يرحب

وتأججت نيران هذه الشعلة بفعل الفراق ، فألهبت مشاعر مطران ، وأشقته دهراً طويلاً ، حتى داخل نفسه اليأس ، واصطبغت نظرته الحياة بصبغة التشاؤم ، وعظم حزنه على حبيبته ، حتى خال كل الوجود حزيناً .. فانظر إليه يصف الغروب الذي تغنى به الفنانون والشعراء :

يا للغروب وما به من عبرة
للمستهام وعبرة للرائي
أو ليس نزعاً للنهار وصرعة
للشمس بين مآتم الأضواء
أو ليس طمساً لليقين ومبعثاً
للشك بين غلائل الظلماء ؟
أو ليس محواً للوجود إلى مدى
وإبادة لمعالم الأشياء ؟

بل حتى الموت تمناه لنفسه فقال :

من لي بالموت لو الآن صبّ
ذاكي الأضالع مقلق الجنب
ليت الرزية فيك أودت بي
فنجوت من ألمي ومن كربي
وفزعت من نفسي إلى ربي

وهو يردد نفس المعنى في قصيدة أخرى :

إن لي في القلب إلفاً	قد نأى عني عسيرا
حجبت منه الليالي	عني الصبح المنيرا
فإذا أدركته أطفأ	تُ من وجدي السعيرا
واتحدنا فالتقينا	تمازج روحين سرورا

وظل مطران حافظاً لعهده ، ذاكراً لحبه ، وإذا كان حزنه قد تناقص مع الأيام إلا أن شعلة الحب بقيت متقدة في قلبه تنعكس أشعتها على أشعاره رقة وعذوبة .

أعماله

قال الخليل :

ويظل المرء في دنيا	ه من شغل إلى شغل
يُجهد نفسه ويقلقها	على الأعوام كالجمل
ومن سنة إلى سنة	يعاودها بلا ملل
فمن أمل إلى يأس	ومن يأس إلى أمل
ولا سعدٌ ولا سلوى	ولا مجد سوى العمل

ولقد فعل الخليل ما قال ، وعاش حياته مجداً في العمل ، فأنتج كثيراً في الشعر والأدب برغم مشاغله في دنيا الصحافة والمال وميادين الاقتصاد الشاقة وإدارة المشاريع الوطنية .

استطاع الخليل برغم هذه المشاغل أن يهدي الأدب العربي بعض الروائع من أعمال أدباء الغرب (كاللآلئ الفريدة [illegible]) ورواية (هرناني) للدكتور هيجو ، وترجم لكورني مسرحيات (السيد) و (سينا) و (بوليكيت) ، وترجم لراسين رواية L'incomparable Bérénice ولشكسبير رواياته الخالدة (هملت) و (ماكبث) و (عطيل) و (تاجر البندقية) و (الملك لير) وغير ذلك من الترجمات كما أصدر كتابه (مرآة الأيام) .

وكتب في غير الأدب فترجم « تعليم الإرادة » لبايو و « التاريخ الطبيعي » للدكتور ديري و « الوجيز في علم الاقتصاد » و « الأحوال الزراعية في القطر المصري » .

وأخيراً أصدرت لجنة تكريم الخليل ديوان شعره كاملاً .

فما أحرى الخليل أن يوصف بقوله :

أبقيت ذكرك في القلوب كريماً
وقضيت حياً وارتحلت مقيما

عبد السميع المصري

صور طريفة من معلقة قديمة

الطبيعـــة

للأستاذ جمال الدين الرمادي

... ورسى الليل سدوله على امرئ القيس وتقدم عليه شيئاً فشيئاً، فيمضي في الفلاة هيمان الخطى يبث الليل ما يعتلج في قلبه وما يجيش في صدره من عواطف ومشاعر. أرخى الليل عليه سدوله كموج البحر فبدا قلقاً متبرماً. أيصبر أم يقنط؟ أيفرح أم يحزن؟ كان امرؤ القيس أسرع إلى القنوط منه إلى الصبر، وإلى الحزن منه إلى الفرح؟ فدعا الليل أن يسرع في سيره والزمن أن يجري في خطوه، ولكن امرأ القيس تصور أن الليل لا يقدم رجلاً إلا ليؤخر أخرى، ولا ينهض إلا ليهبط، ولا [illegible] صدره، ولا يأتي إلى وسطه إلا ليرجع إلى أوله؛ [illegible] امرؤ القيس أن ينجلي وأن يتقشع عن الصبح المشرق البهيج، ليس كهذا الليل الذي تجمعت فيه الهموم وتكدست فيه الأتراح.

ولكن امرأ القيس يضرع إلى الليل وهو لا يسمع، فنجومه قد وقفت في السماء، لا تتحرك ولا تنتقل كأنها قد ثبتت بفتل محكم إلى طود شامخ رسخ في قلب الصحراء. ذلك الطود هو يذبل، وكأن هذه المجموعة من النجوم التي يطلقون عليها الثريا قد شدت بأمراس كتان إلى أحجار صخرية صماء؛ فهي لا تتحرك جهة اليمين أو جهة اليسار، ولا تتقدم إلى الأمام أو إلى الخلف. ماذا! ها هي ذي النجوم الواقفة قد سارت، وها هي ذي الثريا الثابتة قد تحركت، وها هو الليل الهابط قد ارتفع وانبثق أول خيط من خيوط الصباح، وانسكب النور على امرئ القيس فسره وهو يمشي في الصحراء رويداً رويداً...

فلندع امرأ القيس يمشي في الصحراء رويداً رويداً، ولنقف عند منابع الحسن ومواضع الجمال فيها، لا لشيء إلا لأنه قد وقف على معين من الماء يملأ قربته، ولا لشيء إلا أننا نريد أن ننتهز هذه الفرصة لنتبع أبياته بتمييزها من الحسن والقبح.

تشبيه امرئ القيس موج البحر [illegible] تشبيه مبتدع مخترع، ولعل [illegible] يجب أن تصور الصحراء القفرة الجدبة التي لا تقع العين فيها إلا على الرمال الصفراء والسماء [illegible] التي تضرب في عنان السماء، والبيوت [illegible] التي تضرب طنبها في أديم الأرض، وتتصور بعد ذلك امرأ القيس يشبه الليل في هذه البيئة المحدودة بالبحر...

ليس من شك في أنك توافقني على أن هذا التشبيه مبتدع مخترع، لأن امرأ القيس قد طوف في أقطار شتى وشاهد البحر فرسخت صورته في ذهنه حتى إذا ما عاد إلى وطنه دفع إلى هذا التشبيه دفعاً...

وصدقني أيها القارئ العزيز أني لا أذكر هذا البيت إلا وألحظ على الشفتين ابتسامة عريضة أخاف أن تتحول إلى ضحكة عالية مدوية في أرجاء المكان، ولست أخاف أن أضحك لأن هذا البيت ضعيف حتى إنه يبعث على ابتسامة الرثاء، أو قبيح حتى إنه يدعو إلى ضحكة الاستهزاء، إنما أبتسم وأخاف أن أضحك لأني أذكر ما كان بين عمرو بن العاص وعمر بن الخطاب بعد أن مات امرؤ القيس بأعوام طوال في ركوب البحر وغزو مصر. فالعرب كانوا يرهبون

البحر . عمرو بن العاص كان لا يجد دافعاً لهذه الرهبة ، وعمر بن الخطاب كان يجد دافعاً لهذه الرهبة ؛ فقام بين الاثنين نقاش عنيف وجدال صاخب . عمرو بن العاص يريد ركوب البحر ويغري الجيش على ركوب البحر ، وعمر لا يريد ركوبه ويمنع الجيش في شيء من الحدة وشيء من العنف . ولم ينقذ عمراً من هذا الجدال إلا ذلك الوصف الأدبي الذي وصف به البحر ، وقوله أنه خلق كبير يركبه خلق صغير وما إلى ذلك ، واستطاع أخيراً أن يأخذ السماح من عمر بركوبه مع من أراد من جنده ، ولكن عدم ركوب البحر لا يمنع من معرفة البحر ، ولكن هذه المعرفة لم تكن إلا لهؤلاء الشعراء الذين طوفوا في الآفاق وجابوا شتى الأصقاع وبلغوا السواحل والشطآن وصاروا شيئاً من التجارة بين البلدان ...

وامرؤ القيس بعد ذلك التشبيه البديع المخترع يصور همومه وأشجانه التي ألقاها عليه الليل ليرى هل ييأس أم يصبر وهل يتحمل أم لا يتحمل ويصور حديثه مع الليل في أسلوب قصصي لطيف طريف كأنه عمر بن أبي ربيعة وهو مشهور في أسلوبه القصصي الجميل شعره ؛ ويصور الليل وقد هبط بثقله على الكون في معنى سهل رائع وإن كان في مبنى صعب خشن ، ولكنه لا يلبث أن يسهل وأن يلين في البيت الذي يليه حين يدعو الليل إلى الانقشاع والانقشاع الذي يصحبه الصباح السعيد فيمضي الهم والليل جميعين زاهقين .

وتشبيه النجوم في ثباتها كأنها قد شدت بفتل إلى طود شامخ تشبيه مصيب كل الإصابة بين لهفة الساهد الذي طال به الأرق على زوال الليل وبين ثبات النجوم في عينيه . وأنت تستطيع أن تقول هذا التشبيه كما قاله امرؤ القيس منذ قرون فتنال اليوم إعجاباً وتقديراً مستطاباً على شريطة أن تغير لفظة يذبل الغريبة على أسماع أبناء العصر الحديث القريبة من أسماع أبناء العصر الجاهلي ؛ بل إني أذكر أني قرأت لفكتور هيجو الشاعر الفرنسي الرومانسي المشهور قصيدة فيها بيت بهذا المعنى يصور فيه الليل في الظلال بين مونتليون وسانت لو في فرنسا .

وكذلك أعتقد أن تشبيه امرئ القيس الثريا تشبيه رائع ما في هذا شك ؛ ولكن امرأ القيس انتقل بعد ذلك إلى وصف نفسه وهو يحمل قربته أو قربة صحبه بتعبير أدق ، ويمضي في رحلة عبر واد خال خاو كجوف العير الوحشي لا ينتفع به ؛ ولكن ما هذا الصوت البشع المنكر الذي يأتي من بعيد ، فيسعى إليه امرؤ القيس ويسعى حتى يدنو منه ...

ترى ماذا وجد امرؤ القيس ؟ إنه ذئب يعوي كالرجل المقامر الذي يقامر مع أنه صاحب أسرة وصاحب أبناء ، يسعى امرؤ القيس إلى الذئب غير هياب ، ويسعى الذئب إلى امرئ القيس غير هياب ، ويدور بينهما حديث عجيب .

امرؤ القيس لا يخفي عن الذئب شيئاً والذئب لا يخفي عن امرئ القيس شيئاً . امرؤ القيس يطلب أمراً . والذئب يطلب أمراً . فلن يمنع أحدهما الآخر . ومن طلب من امرئ القيس شيئاً لن يناله ومن طلب من الذئب شيئاً لن يناله . إن أيّاً من أحدهما نال ريّاً فقد تعب ومات هزالا ..!!

أقف عند هذه الأبيات وقفة قصيرة ؛ فقد زعموا أنها ليست لامرئ القيس ، إنما هي لتأبط شراً أو الشنفرى من صعاليك العرب ، ونحن نرجح أنها ليست له ، لما عرف به امرؤ القيس من السؤدد والمجد ، ولكننا ذكرناها في المعلقة مع غيرها كل الأبيات التي تنسب إلى المعلقة ؛ وعلى أية حال فالأبيات تدل على البؤس والفقر ، والشاعر يحمل على عاتقه قربة كأتباع وخدم القوم عند الرحيل ، والشاعر يشبه الوادي القفر بجوف العير الوحشي الذي لا يجدي فتيلا . والشاعر يعطينا فكرة جلية عن الصحراء ، وما فيها من حيوان كاسر جائع كالذئب ، وعن حياة العرب بين خير وفقر ؛ والشاعر يصور الحديث الذي جرى بينه وبين الذئب في أسلوب قصصي لا يخلو من جاذبية ، ويبين أنه لا يملك للذئب شيئاً كما لا يملك الذئب له شيئاً ، مما يدل على الأثرة وينم عن القحط والجدب الذي يتمثل في الصحراء ، والاستهتار الذي يتمثل في خلق كل منهما لضياع كل ما يظفر به ويستحوذ عليه . وقد كتب البحتري في العصر العباسي قصيدة يصور فيها ما جرى بينه وبين الذئب ، تعد من روائعه وبدائعه ، بل إن شعراء العرب قد كتبوا في وصف ورثاء حيواناتهم قصائد شتى ، فليس هذا الفن غريباً

أو طيشاً ، وليس هذا اللون غريباً أو عجيباً ؛ وتحضرني الآن قصيدة الورد بيرون الشاعر الإنجليزي الذائع الصيت يوجهها إلى كلبه الوفي الأمين .

لنرجع إلى امرئ القيس وهو يعدو ممتطياً صهوة جواده الضخم الفخم ليدرك الوحوش ويقترب منها ، أو يصبح قيد أوابدها كما يقولون ، أو يصبح بمثابة القيد منها ، كما يريد أن يقول امرؤ القيس : والطير لا تزال في أوكانها في قنن الجبال . فرسه هذا يصلح للكر ، ويصلح للفر ، حسن الإقبال ، حسن الإدبار ، إذا ما عدا بدا كأنه صخرة صماء قد حدرها السيل من القنن العالية ، وفرسه هذا أملس الظهر ، وفي ضموره ونحوله إذا عدا جاش صوته كما يجيش القدر في غليانها ، سهل سلس العدو ، كما ينسح السحاب بالمطر في سهولة وسلاسة ويسر ؛ على حين أن غيره من الأفراس تفتر قوتها ، ويلين عدوها ، وتثير حوافرها نقعاً كثيفاً وغباراً صفيقاً ، وتركل بأرجلها ركلاً إذا عدت فوق أرض غليظة ، وفرسه سريع حتى إن الغلام الخفيف إذا ما امتطى صهوته سقط ، والرجل العنيف إذا ما امتطى صهوته لم يتمالك أن يصلح ثيابه وعمامته [illegible] خفيف كالخذروف الذي يلعب به الصبي [illegible] ظبي وساق نعامة ، وكأن جريه جري الذئب ، وتقريبه تقريب ولد الثعلب ؛ ولفرسه ذنب سابغ صاف ينحدر بين رجليه لا على جانبيه ؛ وإذا كان قائماً عند البيت غير مسرج لاح ظهره أملس كذلك العروس في صفائها وملاستها ، أو كالصلاية التي يعرض فوقها الحنظل فيلمع ويسطع .

والواقع أن هذه الصور التي أتى بها امرؤ القيس في وصف فرسه صور فيها كثير من الحركة والحياة ؛ ففرسه يجيش دون أن يستحثه على الجري ، أو يقرعه بالسوط ، وهو سهل الحركة ، كما ينسح الماء من السحاب في سهولة ؛ والجواد حين يسقط الخفيف ويزحزح العنيف يدفعنا إلى استحضار صور عدة ذكر لنا امرؤ القيس بعضها ، ودفعنا إلى ذكر البعض الآخر ؛ فالجواد يعدو ويعدو والغلام فوقه يحاول أن يأخذ منه قوته ويحفظ اتزانه ، فيقبض على زمامه ويشتد في قبضته ، فلا يفلح في شيء من هذا ، ولا يلبث أن يهوى على الأرض متدحرجاً متحطماً أو كالمتحطم ؛ والجواد يعدو بالرجل الثقيل وهو يحاول أن ينصب قامته ويعدل أطراف ثوبه التي تجذبها الريح جذباً وتدفعها دفعاً ، فلا يستطيع أن يفعل شيئاً من هذا . وقد أتى امرؤ القيس بعد ذلك بتشبيهات تتعلق بكشحي الفرس وظهره . وأكبر الظن يا سيدي أنك ضقت بهذه الأوصاف التي لا نهاية لها ، ولكن صدقني يا سيدي لو أن شاعراً صاغ هذه المعاني التي أرادها امرؤ القيس في وصف حلبة من حلبات السباق في الجزيرة ، أو مصر الجديدة ، أو اسبورتنج في أسلوب سهل سلس واضح قريب الألفاظ ما وجهنا إليه نقداً ، ولما وجدنا في شعره طعناً ، وصدقني كذلك يا سيدي أن هذا ليس عبثاً ، أو ما يشبه العبث ، وليس لهواً ، أو ما يشبه اللهو ، إنما هو جد أشد ما يكون الجد ، لا في الأدب العربي فحسب ، بل في الأدب الأوربي أيضاً ؛ فقد فرغت منذ يومين من قراءة كتاب في صفات الجياد ألفه أحد الكتاب المحدثين فجاء في حوالي خمسمائة صفحة مزينة باللوحات والصور .

جمال الدين الرمادي

قصة بيتر إبتسون

للكاتب الإنجليزي «جورج دو موريه»

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

قال الكاتب :

إن هذه القصة سجل حوادث وقعت لرجل كان نزيل مستشفى من مستشفيات الأمراض العقلية . وقد جيء به إلى هناك لجريمة اجترمها . فهو إذاً نزيل من النزلاء المجرمين .

وقد سجلت هذه الذكريات وفقاً لرغبة أبداها (بيتر إبتسون) وهو في ساعة الاحتضار . وطلب أن تنشر تلك الذكريات كما كتبها كاتبها أول مرة .

ولذلك فإن (مادج بلنكت) وهي المرأة [illegible] من قريباته التي عاشت بعده ، [illegible] راحة الموت .

واستعرضت تلك المرأة ذكرياتها عن (بيتر إبتسون) الذي عرفته يوم كان طفلاً في المهد ، فقالت : إنه كان طفلاً لم تر عيناها أجمل منه أبداً . وكان لطيف الروح ، وكان ظريفاً ذكياً .

وفي النسخة المخطوطة التي تركها لنا بطل القصة تناولت (مادج) الأسماء بالتغيير والتبديل ، ونالت من بعض الحوادث التي لا غناء لها بالحذف والبتر ، وهي — فيما خلا هذا — قد أبقت الرسائل كما جرى بها قلم كاتبها .

وكان اسم صاحبنا أول أمره (بيير باسكيه) لا (بيتر إبتسون) كما تسمى فيما بعد . وقد عاش أيام طفولته الأولى في مدينة (باسي) وهي ضاحية من ضواحي باريس ، وكانت تلك السنون مليئة بالخير والبركة . فكان هناك أقرباؤه وقريباته الذين [illegible] بالجمال . وكان هناك جيرانه الذين مثلوا ظرفاً ورقة . وكان هناك أنداده ولداته في اللعب ، وهم مثال البهجة والوداعة .

وقد ظلت ذكريات تلك السنين قائمة في مراحل حياته ، فكانت له تلك الذكريات كأشعة الشمس التي تضيء في داج من الظلم .

وكانت كلما مرت بخاطره ، تذكر تلك الأغنيات الفرنسية العذبة التي [illegible] إلى أبواب السموات العلى . ثم تذكر تلك الحديقة التي كانت مراتع آرامه ، ومراد أحلامه . ثم [illegible] تذكر (أول) التي كأنما كان ماؤها [illegible] كان يراها أكثر [illegible] العالم إمتاعاً للأنظار .

وكان أحب أحبابه إليه ، وأبرهم به ، وآثرهم عنده ، هم (آل سيراسكيه) فكان الدكتور (سيراسكيه) وزوجته الإيرلندية ، البارعة الشكل ، اللطيفة التكوين ، وابنتهما (ميمسي) الحزينة القسمات ، على الرغم مما بها من هزال — كان أولئك الثلاثة كأنهم قومه وأهله .

وكان (جوجو) هو اللقب الذي كان يتسمى به الصبي ، وكانت الفتاة (ميمسي) تحب (جوجو) عدد النجم والحصى والتراب .

وكان (آل باسكيه) والمحيطون بهم يؤلفون فيما بينهم حلقة : فيها الجمال ، وفيها الخير ، وفيها السعادة .

ولكن الدهر عصف بسعادة الصبي وهنائه يوم قتل أبوه وهو يقوم بتجربة اختراع له ، كان يأمل أن يجود عليه بالثراء العميم .

ثم لحقت به (مدام باسكيه) بعد حين ، فبقي الصبي يعاني مرارة اليتم .

ثم انتقل ليعيش في كنف أحد أقرباء أمه ، هو (الكولونيل روبير إبسون) الذي كان قد أحب فيما مضى (مدام باسكيه) ، ولكنه خسرها ليظفر بها والد (جوجو) .

أما الفتاة (ميمي) ، فقد كاد الحزن يقتلها يوم فارقها (بيير) وانتقل إلى إنجلترا .

وأمر القيّم عليه أن يُلحقه بنسبه ، فأصبح الصبي (جوجو باسكيه) يسمى باسم (بيتر إبسون) .

ولقي الصبي في إنجلترا صنوفاً من الذل ، وذاق ألواناً من الشقاء ، فكان يكره الوصي عليه كرهاً شديداً ؛ ذلك لأنه كان رجلاً وضيعاً متغطرساً ، وكان مختالاً مغروراً ، وكان يجمع بين اللؤم والخسة ، وكان — كما عرف الصبي يوم كبر — خليعاً فاجراً . فقد طالما روى المغامرات الفاتكات بهتاناً وزوراً ، وقد طالما لم [illegible] مرضيين .

واتفق له أن رأى ذات مرة أربعة [illegible] من السيدات الفضليات ، ثم قامت بينهما أواصر الصحبة ؛ فلم يكتف بأن يخلف وعده لها بالزواج ، بل زاد على ذلك بأن رماها كذباً بأشنع التهم . ولما بلغ (بيتر) مبلغ الشباب خلف وراءه هذا الرجل وسافر ليلتحق جندياً يخدم سنة واحدة في جيش المملكة كواحد من الفرسان .

ولما انقضى أجل الخدمة تتلمذ على مهندس معماري اسمه (مستر لتوت) وظل معه يدرس ويعمل في مدينة (بنتونفيل) وهي تلك المدينة الصغيرة التي رانت عليها الكآبة .

وشب (بيتر) فتى ، وضيء الطلعة ، صبيح الوجه ، وضاح المحيا ، ممشوق القوام ، سوي الخلق ؛ ولكنه كان يجمع إلى ذلك حياء شديداً ، وفرط إحساس ، فأصبح يتنأى عن الخلان والأصحاب . وكان يحس لذلك عناء لا حد له ، وكان يذم الناس والزمان ، وكان عن نفسه غير راض .

ثم علق بالفنون ، ولكن ماذا تفعل الفنون بمن انقطع عن الناس ، وانقطع عنه الناس ؟

واتفق له أن رأى لأول مرة (دوقة تورز) وذلك يوم كانت في حفلة راقصة ، قامت في بيت من بيوت الأرستقراطية ، وقد [illegible] من التقى بالدوقة لأول نظرة ، وفتن بها ، وأصبح عبد هواها ، ولكنه لم يتحدث إليها ، ولم يكن يأمل أن يراها مرة أخرى ، ولكنها — على الرغم من ذلك — قد ملكت عليه لبه ، فكان يراها في أحلام اليقظة ، وكان يراها إذا غفا وأخذته سنة من النوم :

(ملك القلب مرأى   يروح فيه ويمسي)

وأخيراً استطاع أن يجمع مالاً يستطيع به السفر [illegible] إلى (باريس) وهي تلك الضاحية التي [illegible] طفولته ، لم يعرفه أحسن غير ذلك [illegible] الذي كان يقص عليه الأقاصيص أيام طفولته .

وفي باريس رأى (دوقة تورز) التي شغفته حباً ، رآها وهي تسوق عربتها ، وظن أنها قد عرفته .

فلما جن الليل رأى في النوم رؤيا صادقة ، رأى أنه التقى بالدوقة وأنه تحدث إليها ، ورأى أنها علمته كيف يجعل أحلامه تتحقق ، ورأى أنه قد كر راجعاً إلى أيام طفولته ، وأنه رأى ساعتئذ أنه لبس قميص أمه ، فاختنق شبحها ، واستيقظ هو من نومه .

ومنذ تلك الليلة أصبحت له قدرة على أن يحقق لنفسه — كما أراد — دنيا غير دنياه هذه ، وأن يعود إلى الأيام السعيدة التي كان ينعم بها .

ولما عاد إلى لندن تلقى دعوة إلى مأدبة تقام في البيت الذي لقي فيه الدوقة لأول مرة ، وعلم أن (ماري تورز)

لم تكن إلا الآنسة (بيرلسكيه) وهي ليست إلا صغيرته (ميمي) حبيبها وملاكها.

وقد حدث له مع الصدفة أعلن لها — غير عامد — أنه (جوجو) الصغير قد شب وكبر.

ولكن (ماري) كانت أقل منه دهشة ، ذلك لأنها قد تبينت فيه مشابهة لجوجو عندما التقيا أول مرة.

ودهش كلاهما إذ عدا أن رؤياه في الليلة السابقة ، وهي أنه التقى وإياها في باريس ، قد رأتها هي في منامها.

وباحت له (ماري) بمكنون سرها ؛ فقالت إنها لم تحب أحداً ، وإنها ظلت تذكره على مر الأيام ، وإن ذكرى حبها له في طفولتها قد كانت لها عزاء في آلام محنتها ، يوم تزوجت وغداً سكيراً ، ويوم رزقت بولادة طفل معتوه.

ثم افترقا ، وعاد (بيتر) إلى عالم خفائه ، تعمر رأسه الخواطر عن (ماري) ، ولكنه فارق دنيا أحلامه ، يوم فارقها.

وفي تلك الآونة رآه (مسز ...) ... (مسز جرجوري) ، وكان يمشي وحده ، ... أحست هي أن لا بد له من قرانه.

وكان الخطاب قد بعث به إليها (الكولونيل إبسون) ، وقد ضمنه كذبة خبيثة مؤداها أن والدة (بيتر) كانت عشيقته ، وأن (بيتر) كان ولده غير الشرعي ! فجن جنون (بيتر) من الغيظ على ما نال أمه من تشنيع وتعيير.

ثم مشى (بيتر) إلى (الكولونيل إبسون) وفي يده الخطاب ؛ فلما واجهه (الكولونيل) بالتعيير والحط من قدر أمه ، أهوى عليه بضربة من عصاه فكانت الضربة القاضية.

وأبى (بيتر) أن يعيد على مسامع المحققين ألفاظ التعيير التي رميت بها أمه ، والتي كانت السبب في اعتدائه على (الكولونيل) ؛ فلم ير القضاة له عذراً مخففاً ، فحكموا عليه بالقتل.

ولكنه في الليلة التي صدر فيها الحكم عاودته أحلامه ، فرأى في المنام (ماري) فأخبرته أن الحكم سوف يخفف إلى عقوبة السجن مدى الحياة ، وأنبأته كذلك أن زوجها وولدها الصغير قد ماتا ، وأنها وإن تكن تفصلها عن (بيتر) جدران السجن ، فإنهما يستطيعان أن يلتقيا في عالم الرؤيا.

وقد تحقق ما أنبأته به (ماري) ، وعاش (بيتر) في السجن خمسة وعشرين عاماً ، وهو سعيد غاية السعادة ؛ فكان يلتقي وإياها كل ليلة في ذلك البيت الجميل الذي كان يضمهما وهما طفلان.

ثم تواعدا — في المنام — على لغة سرية ، كانا يتراسلان بها.

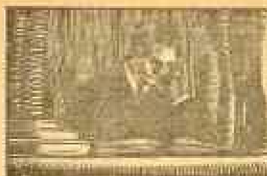
ومرت تلك السنون السعيدة ، مر السحاب ، وبرع كلاهما في فن الأحلام براعة لا حد لها ، حتى لقد استطاعا أن يجعلا العصور تكر بهما راجعة إلى ديار أسلافهما الأقدمين فيريا ما بقاء الأجداد والآباء ، والتحدث إليهم.

ولكن باب السرور قد تغيب مفتاحه يوم ماتت (ماري) ، فتحطم الحارق ... (بيتر) فاعتدى على حراسه ، فنقل من السجن إلى مستشفى المجاذيب.

وأصابته حمى خبيثة وشفي الموت ، ولكنه لم يمت ، ثم عاودته قوة الحلم ، وكان في أحلامه الماضية يرفل دائماً في حلل الشباب ، وهو اليوم قد ناله الكبر ، فأصبح يرى في منامه أنه شيخ متهدم ، يهيم على وجهه فوق شواطئ بركة (أوني) ، وأن امرأة عجوزاً تنتظره هناك ، وأن تلك العجوز هي ... ماري ...! وأنها قد عادت إليه من العالم الآخر لتوصيه بالصبر ، والتعلق بالأمل ؛ فمن يدري ! فلعلهما أن يلتقيا مرة أخرى ...

وكذلك عاش هو بقية حياته ، وغذاؤه الأحلام ! فكان في كل ليلة يعود بذاكرته إلى تلك المغاني التي أحب ، وكان طيف (ماري) يزوره حيناً بعد حين ، فكان يُسرّ بالسعادة تغمره كلما عاوده الأمل : أن قد يجمع الله الشتيتين ...

(عن الإنجليزية) مبارك إبراهيم



نقد الكتب

كانت لنا أيام

ديوان شعر للشاعر السوري عمر النص

١٣٦ صفحة — المطبعة الهاشمية — دمشق

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

ألا فليشفق هذا الشاعر على آماله وهمساته ؛ فإن تراه جازعاً خشية أن يمحو الزمان هذه الأماني فلا تجد من يحس لها في زحام الحياة وضجة الأيام . وتراه يسأل في لهفة وتطلع فيقول :

من ترى يمشى إذا رتـ ... ـت بالنفس وهمس ...
حين تذوى الغيض بالند ... ع ...
حين يأوى الطير للوكـ ... ر ويطوى كل نبس !

ولكن هذا الشاعر غني عن حيرة السؤال ؛ فإن في ديوانه كله أنغاماً ستظل سارية مع النسيم ، ومع البحر ومع النهر .. وستظل كل أذن تصغي إليها في سكون ، وتستوعبها في لذة ، وتشفق على صاحبها الذي جعل من ديوانه نغمة واحدة هي نغمة الحب الظامئ المتحرق ، الخائف الوجل ، المتعب المكدود ، الباكي على أمسه ، المتوجس من غده .

ولم يسعدني الحظ أن أعرف من الشاعر شيئاً قبل أن يهدي إلي ديوانه الجديد ؛ فصاحبته في « الانتظار » و « الحرمان » ، وفي « السأم » و « القلق » وفي « الصباء » و « زفرة اليأس » ... وصاحبته في غير ذلك من قصائد الديوان التي تحمل عناوين تموج بأصداء السنين ؛ فرأيته قلباً يذوب قطرة قطرة على (أيام) كانت له ! ويتشوق إلى (غد) ينعم فيه بالقرار بعد أن أكداه السير والسرى ، وبعد أن أطال التطلع فيما وراء الآفاق . ولكنه لا يزال خائفاً من عثار الطريق ، ودوى الضجيج فيقول :

وقفتُ على الدرب منذ الصباح
أجوب الدرى وأجيل النظرْ
وهالته ... وبت وسل السماء
وساءل الفضاء وعام البحرْ
... أبو ... من الجبال
وراء خيال ضجيج حذر ..
ومازلت ثم أمد اليدين
وأصرخ : رب متى أنتظر ؟
ومازلت أخشى عثار الطريق
وأخشى الضجيج وأخشى القدر

• • •

وإذا كان الشاعر (عمر النص) قد أتعبه السؤال ، أو أتعب هو نفسه بهذه النظرات الكئيبات وهذا التشاؤم الذي لا أجد له مسوغاً — مهما كانت مناسباته وملابساته — فإنه قد أتعبني معه حتى كدت أسقط من الإعياء ، وأنا أقرأ ديوانه مرة ومرة ومرة .

ولم أجد في أسلوب الشاعر تعباً ولا إعياء ؛ ولم أجد في تلك الصياغة الشعرية المحكمة نصباً ولا رهقاً ؛ ولم أجد في نفسية الشاعر إجهاداً ولا تعقيداً . ولكني وجدت أخاً لي في الإنسانية ، وزميلاً لي في الشاعرية قد تعب شبابه ،

وأجدب ترابه ، واشتد على الرمل سرابه ، ووجدت في الشاعر رجلاً قد آده النحس بأحماله ، وأناخ عليه بأثقاله .. فراح يندب « لياليه » في أنغام حزينة ، شاكية ، باكية ، وراح لم يجد ما يغريه في البقاء أو يطمعه في العيش فقال :

أيها الطيف الذى يعـ ـبر دنيـاى ويجرى !
ها هنا القلب الذى أصـ ـغيته أمس ... ويجرى
لم يعد يمسك ما يحـ ـلو من العيش ويغرى
ودّ لو يحمل لم يـ ـبق .. ولكن كيف يدرى

ترى من يكون هـذا الشاعر السورى الذى أراد أن يضيف إلى أوتار العود الحزين وتراً جديداً ؟ ترى من يكون هذا الإنسان المتعب الذى لم تشرق من خلال ديوانه ومضة واحدة بأمل جديد ؟ وهلا أبق من الصموع شيئاً (لغده) !أو ترك فى قرارة الكأس شيئاً ؟ لندعه هنا يحدثنا عن نفسه ، ويعرفنا بهويته فيقول :

أنا شيخ أدب فى شعب الأر
ض وأهـفو بحرق وفراق
أتروى فى الحيـاة أذكر دنيا
ى وأحيا فى الأمسيات البواقى
أنثر الذكريات بين يدى يو
مى وأرنو لخطوى فى استغراق
وعلى المقلتين نظـرة يأس
خلفتـها الكروب فوق حداقى
أنا شيخ أمرّ بالأرض سأما
ن ، وأطوى الحيـاة فى إشفاق

فهو هنا يعترف بشيخوخة يستعيد فى ظلالها إشراق ماض قديم ؟ وهو فى مقطع آخر من قصيدة أخرى يتساءل : هل أوغلت فى ظلام الـكبر ؟ وهل شاخ القلب فلم يعد يستهويه غناء ، ولا يزدهيه للحياة نداء .

ويقول فى أسلوبه الحلو الرصين :

ترى هل أضعت الطريق السوى
وأوغلت فى ظلمـات الـكبر ؟
أولّى زمانُ الـنى والغنـاء
وأقفر درب الـندى والزهَر ؟
ومات الشذى فى الربى والبطاح
ومات الخريف خـلال الشجر

أم القلب شاخ .. فمـا يزدهيه
نداء الحيـاة وزهو الظفر !

ولقد حمدت الله عند بلوغ هـذين البيتين . على أن الشاعر عمر النص ليس عادياً يائساً .. وإنما هو شيخ نال من الحياة ونالت منه ، وشبع منها وشبعت منه .. فلا ضير عليه بعد ذلك إن بكى أمسه ، أو ندب نفسه .. ! ولا ضير علينا — بعد ذلك — إن قسونا عليه فقلنا : ياشيخ ! فيم البكاء وفيم هذه اللهفة العارمة ، وفيم هذه الزفرة المحلية .. وقد شبعت من الحياة .. ! ثم شبعت منها باعترافك وإقرارك ، فلم تعد تبكينا معك — مهما كنت بارعاً فى الاستبكاء — على شبابك الذى لن يعود ...

وقد يقول قائل : إن الشاعر هنا يعالج تجربة شعورية خاصة به ، فما له يعيم الدنيا وضيعها من أجل نفسه ، وما له يتصور أن الأرض ستطبق عليها السماء ، لأن شاعراً « كانت له أيام » تم فتح عينيه على الأفق ، وعلى الفضاء ، وعلى الطفل والحاضر والمستقبل ، فإذا هـذه الأيام قد ذهبت إلى غير عودة ، ومضت إلى غير رجعة ؟.

ولكنا جميعاً — أعنى الناس — لنا أيام ! وسنقف فى آخر هذا الدرب بعد طول الجوب ... نجيل النظر فلا نرى غير ظلام السماء وهو يطبق على النهاية . فإذا استطاع شاعر — كالأستاذ عمر النص — أن يعبر عن فاجعة الحياة ، وفراغ الحياة ، ويأس الحياة ، وخداع الحياة بالنسبة إليه فقد استطاع أن يعبر عن ذلك جميعاً بالنسبة إلى كل واحد منا — منا نحن الحيارى الماضين فى تيه قد شغلنا عنه قليلاً بعض آلاء الطريق ...

ومن هنا لم تكن « أيام » عمر النص أيامه وحده ، ولا كان ماضيه له وحده ، ولا كانت مخاوفه من الحياة مخاوفه وحده ، وإنما هى شكاة كل إنسان ، وعلة كل موجود .

• • •

يتطلع الشاعر عمر النص فى ديوانه الحزين إلى الماضى ؟ ولـكن هذه النظرات لا تشغله عن التطلع إلى « الغد » . وتطلعه إلى الأمس هو تطلع التحسر . أما تطلعه إلى « الغد » فهو تطلع مشوب بالخوف أولاً ، ومقرون بالخيبة ثانياً .. لأن الشاعر تصوره أخضر ناضراً ، فإذا هو مقفر موحش كئيب كما يقول :

أمامى قد قفر يكاد يضيق بى … وخلق من ذاك النعيم حؤول !

وكما يقول فى قصيدة أخرى :

وفتحت للأنوار أفق غدى … فإذا الشحة فيه تنتصب

أما غنية الأمل فى هذا الغد الرغيب ، والصورة التى تخيلها الشاعر له خضراء مورقة فإنما هى على الغد من ذلك ، والتلهف الحبيب إلى استشراف الغد …

أما ذلك كله فقد عبر عنه الشاعر أصدق وأجمل تعبير فى قوله :

وكان لنا غدنا السرمدى
غدٌ مُخطاء ومنتظرُ
وزمنه بالشباب الهيف
ورصده القلب والبصر !
تماثلت أخضر السنتين
يموج به النور والكوثر
وقد نشرته رؤى من هواى
وزينته أمـل زاهر !
تبينه فى الفضاء القصى
وقد غص …
فأبعده القلب خلف الحلى
يحدق فيه ويستبصر
فلما رأى ! عاد يبكى هـواه
وهمهم : تمـه إنه مقفـر

• • •

وأيام الشاعر التى (كانت) هى صنو (الربيع) الحلو الرشيق حين يدبر ! وغده الرغيب المرجو الحبيب للآمال هو صنو « الخريف » … الخريف الذى يهابه الشاعر ! ويحاول أن يجد منه مهرباً ، ولكنه مدركه … كالليل النابغة الذبيانى الذى يقول فيه النعمان :

فإنك كالليل الذى هو مدركى
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وما أشد خوف شاعرنا عمر النص وهو يقول :

فديتك قد أطلّ خريفُ عمرى
فأين مهربى منه وبُعدى

• • •

سكين هذا الشاعر فى إسلام نفسه لمثل هذه الهواجس والخواطر التى تذهل الفكر ، وتحير العقل وتنغص ما بقى من العمر ! وإن كان يتظاهر أمامنا بالصبر ، واستقبال ما لابد منه كأنه حقيقة واقعة ، وعدم الاستسلام للخوف والرهبة … فيقول :

أنا ذاكر غـداً إذا ذوى النو
ر وتمرّ الخريفُ بالأوراق
تتزف من دمى بقية عمـر
خلفتهـا الأيـام فى أعماق
أيهـذا الخريف ! لا أرهب الر
يح .. فقدْ بالهموم والإرهاق ..
الربيع الذى أؤمـل ولى
فى ذهول ورقة واشتيـاق !

• • •

الخوف دائماً هو آفة هذا الشاعر الذى يخيل إلىّ أنه قطع مراحل العمر فى فزع موصول ، ولم يغادره الخوف حتى فى شيخوخته التى يبرز فيها شعره …

… الحياة ملأى مملوءة بالرعب ، فلا … من ترت الأمان ، أو نسمة من لمسات … أو يخيل إلىّ أنه « أنانى » مسرف فى الأنانية ، أو « شحيح » مبالغ فى الشح ! يقف على أطلال « الماضى » وقوف بخيل ضاع فى الترب خاتمه … اسمعه وهو يقول :

أخاف أخاف أن يطوى … ظلام اليأس ليلاتى
ويتركنى على الأرض … بلا ماض ولا آت
سليب العزم أستجدى … من الحرمان أيامى
إذا ما أومأ الفجر … نثرت عليه آلامى

ويعود شاعرنا كرة الأمس وكبرياؤه … فيلجأ إلى الصبر وإلى التفكير … ولكن هذا كله هباء لا يخدعنا عن شعور الخوف فى نفس الشاعر مهما دل مثل المقطع الآتى :

فديتك أيها القلب … أأنت تراع من سحرك ؟
أأنت تخاف أن تنسى … أأنت تشك فى صبرك ؟
لقد جدّ بك النأى … فماذا كان من أمرك ؟
وقد روعك الدهر … فكاد يجنّ من كبرك !

فلو أن الشعر كاد يجن من كبر الشاعر حقاً لما سمعنا

أنغام الحيرة والتشكك تسري في خلال ديوان (كانت لنا أيام) ؛ ولكن لعلها فكاهة شاعر من الذين يقول فيهم القرآن : (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) ...

ولقد صور الخوف الشاعر « عمر النص » من الأوهام في الحياة ما كاد يظلل فيها معنى الوجود وقيمة الوجود ، حتى صارت الحياة في نظره ، وأصبحت الرغبات أمام عينيه هباء في هباء :

هباء هي الدنيا اهتداء هي الرؤى

هباء هبـاء كلّ ما أنا أرتقي

وهذه النظرة « الهبائية » المنبثقة من خوف الموت وأخت العدم ، وهي تتنافى مع القوة الحيوية التي يجب أن يتسلح بها الإنسان — ولو كان شاعراً ... وأي إنسان حي قوي مفعم بالحيوية يرضى أن يردد مع الشاعر عمر النص قوله :

في فضائي تحوس أجنحة المو ت وفي خافقي أحس خطاها

وعلى مقلتيّ يتعقد اليأ س وتجري مع الدموع لظاها

* * *

وعلى الرغم من أنغام اليأس والخوف وخيبة الأمل التي تشيع في ديوان (كانت لنا أيام) من [illegible] الشاعر استطاع في صدق وقوة [illegible] يصور لنا جانباً من الحياة ... ولو [illegible] المشرقة الباسمة لاستطاع أن يبعث الفرحة في قلوبنا جميعاً .

ولا يقولن قائل : كيف يصور الشاعر لنا آلام تجربة من أشراق الحياة . فإن الشاعر لا شك قد جرب في (أيامه) الماضية كثيراً من السرور الذي جاء اليوم ليبكيه ... وما الذي أبكاه وهو غريق في ماضيه السعيد عن أن يسمعنا أنغام سعادته ؟ حتى إذا ولت هذه الأيام عاد يندبها في ديوانه (كانت لنا أيام) ؟

ألم أقل لك إن الشاعر « عمر النص » أناني ؟ ودليل أنانيته أنه لم يشركنا معه في أفراح ماضيه السعيد ، ثم يجيء اليوم فيشركنا معه في آلامه ووساوسه ومخاوفه من عدمه ، ويفرض كل ذلك علينا فرضاً ... ؟

* * *

ولا أدري لماذا أعجبت بهذا الديوان فقرأته أكثر من مرة ، ولعله سرقني في شهر رمضان ، شهر النسك والعبادة ؟ لقد يجد الإنسان الآلام يطلبن من غرور النفس البشرية الملوثة ... ! ولعل ذلك هو الذي حبب إليّ ديوان « كانت لنا أيام » ، أو لعل أشياء أخرى قد دفعتني إلى قراءة هذا الشعر الحزين دفعاً ، فوجدت من قراءته طرباً وسروراً ...

ولا أدري لماذا سررت في جو خانق بالحسرات والآهات ؟ ولعل شاعرية الأستاذ عمر النص ، وأسلوبه العربي الرصين المشرق ، وصدقه حتى في التعبير عن الآلام هي مبعث ذلك الطرب والسرور .

* * *

بقيت بعد ذلك كلمة تحتم الصراحة أن أحسبها ... فلو خلا هذا الديوان العربي الفصيح من بعض الضرورات وخطأ البناء اللغوي لكان سيد الكمال ...

في صفحة ١٣ « أخاف من السنين » ، وصوابها « السنين » .

وفي صفحة ٢٥ « الخجلانِ » ، وصوابها « الخجلان » .

وفي صفحة ٢٦ « أذيْن » ، وصوابها « أذين » .

وفي صفحة ٤٣ « [illegible]ياه » ، وصوابها « يُرتجاه » .

وفي صفحة ٨٨ « [illegible]سنيه » ، وصوابها « سنيه » ، لأن [illegible] الإضافة إلى الهاء .

وفي صفحة ٩٨ « تُبيح صوتي » ، وصوابها « تبيح » بالبناء للمعلوم لا للمجهول .

وفي صفحة ٣٣ ، ٨٨ ، ٩٠ « ورقة » بتسكين الراء ، وهي ضرورة كان يجب عدم الالتجاء إليها .

وفي صفحة ٤٨ « وإن أدري إلا يا » ، والصواب إلا إياي ، لأن إلا لا يقع بعدها الضمير المتصل . وهذه ضرورة من الشاعر عمر النص كالضرورة التي وقعت في شعر القائل القديم :

وما نبالي إذا ما كنت جارتنا ألا يجاورنا إلاك ديار

* * *

وماذا تكون هذه المآخذ في جانب كثير من الحسنات التي امتلأ بها ديوان « كانت لنا أيام » ؟ وهي حسنات في الشعور ، وحسنات في التعبير ، وحسنات في الصور ، يُرزق بها هذا الديوان في إنتاج الشعر هذا العام ، وقبله من أعوام .

محمد عبد الغني حسن

سندباد إلى الغرب

تأليف الدكتور حسين فوزى

دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٥٠

للدكتور حسين مؤنس

كان من حقى أن أقرأ هذا الكتاب الفريد وأنا أتنقل بين متاحف الفن وروائع الإبداع الإيطالى فى فلورنسا ، فكنت أشعر كأنما هذه الفصول التى أقرؤها وتلك الآثار التى أراها قد صيغت جميعها من مادة واحدة ، ولم أكن أشعر أن هناك أى فارق بين فصل « المطارد » ، أو صورة « الموظف الصغير » ، أو مقال « الفن المصرى » ، وبين تمثال « سان جيورجيو » لدوناتيلو ، أو تمثال « العذراء والطفل » للوكا دلاروبيا : كلها ابتكارات لطيفة صدرت عن نفوس مرهفة أسبغ الله عليها نعم الإحساس الكامل والخيال الخلاق والشعور القوى والتعبير الصادق ، فجرت أيديها بالريشة أو الأزميل أو بالقلم فى سهولة ويسر ، وأبدعت ما شاء الله لها أن تبدع من لطائف الفن والتصوير والكتابة . أجل ، أحسست وأنا أقرأ هذا الكتاب فى ذلك الجو الفنى الحافل أن مادة الفن واحدة ، وأن هذا الذى كتب هذه السطور ، إنما هو مصور يرسم بالقلم والكلمات ، وموسيقى تنطوى كلماته على نغم ونشيد ، وما عليك إلا أن تقرأ فصوله عن « لا بالوما » و « موتسارت » و « بيتهوفن » ، حتى تشعر أنها سيمفونيات مكتوبة ، لأن هذا الإحساس الكامل بعظمة موسيقى عظيم مثل موتسارت لا تضمه إلا نفس موسيقية حافلة بالنغمات والألحان ...

ولا أبالغ إذا قلت إنى لم أقرأ منذ سنوات كتاباً عربياً أثار نفسى وأحدث فيها من الانفعالات ما أحدث هذا الكتاب ؛ فإن كل سطر فيه ينطوى على فكرة تستثير الذهن وتهز الإحساس هزاً عنيفاً . وإنى لأعجب كيف استطاع هذا الفنان المبدع أن يبلغ من الإجادة فى التصوير والتصوير ذلك المبلغ الذى مكنه من أن يصف أجواء متباينة ينتقل الإنسان معها من أثينا إلى النورماندى ، ومن رودس إلى لندن ، ومن روما إلى مولد السيد البدوى ، فى خفة وصدق وإمتاع ، وطوع له أن ينقل قارئه من مجاهل الشمال حيث الثلوج والأعاصير إلى سهول مصر ، حيث الجو الراكد الساكن ، والحر الذى يجثم على الأفئدة ويكتم الأنفاس ؛ وهو إذ يحدثك عن « الفتاة الصائغة » فى نورماندیا ، ويصور لك أحوال الناس فى مدوار (دوّار) شاكر الزنفلى متقابلة ويعطيك صورة من حياتهم وما يتشاغلون به من طل الحديث ، أو حين يحدثك عن صديقه مكرسوس الشاعر من البطولة ورجال الحرب ، أو عن كئوس خمر ساموس النبيلة الحمرة التى شربها قبل أن يصعد إلى الأكروبول ، يشعرك فى كل كلمة يقولها أنه فنان أصيل يستطيع بلمسة من ريشته الصناع أن ينقلك إلى حيث يريد إلى العمق الذى يريد ... ويكشف لك عن ثقافة واسعة واطلاع جيد لا نجدهما عند أكثر من نقرأ له من الكاتبين بالعربية ، بل تشعر أن الكاتب يستلهم وحيه ويقتبس الأضواء التى يوزعها بين سطوره من علم غزير خالص لا يتاح الوصول إليه إلا لمن تشرب هذه الحضارة من مجاريها الواسعة ، وطاف فيها طواف السندباد بحور الدنيا ... وحتى فى الفصول التى يتحدث فيها عن أشياء مصرية بحتة ، كمولد السيد البدوى ، أو دوائر الفن فى مصر ، تشعر أن

أساتذته يضعون هناك في إغريق القديمة ، وإيطاليا في عصر النهضة ، وألمانيا في أيام جيته وشلر ، والنمسا في أيام موتسارت وبيتهوفن ... تشعر أنه نهل من هذه المنابع الفياضة واغتذى بخيرها وثماره حتى أصبح جزءاً من كيانه. من هنا لا غرابة أن تشعر وأنت تقرؤه أنك تستمع من عقله وأحاسيسه التي في بحر زاخر يبعث في نفسك لوناً من النشوة قلما تشعر به وأنت تقرأ كتاباً عربياً آخر ...

أجل ، وما أصدقه وهو يتحدث إليك عن أيام الطفولة وصف لك نفسه طفلاً يصنع طائرة من الورق ليرفعها في الهواء وتحلق معها عقل الطفل في أجواز الفضاء ، إنه يصل بوصفه هذا إلى أبدع وأدق ما يصفه الواصفون في العربية ، لأنه يجمع الصدق والبساطة والعمق في النظرة في آن واحد ، وما أصدقه حينما يصف لك الشعور الذي أرق به مرة ليفتح المندل ، فناداه — وكان إذ ذاك صبياً — وأجلسه ووضع على رأسه خرقة وأعطاه فنجاناً وطلب إليه أن يصف ما يرى ، فلم ير الصبي شيئاً ، [illegible] بخبرته ليؤثر في خيال الصبي ، ويصور له أنه يرى في قاع الفنجان سارق الشيء الضائع ؛ فأصر الصبي على أنه لا يرى شيئاً ، فرفع الرجل الخرقة عن رأسه وقال لن مرة كمن يتعزى عن الخيبة : « الولد أدرك ! » ، وهو يريد بذلك أن الصبي قد بلغ مبلغ الرجال ، فلم تعد الشياطين توحي له بالأسرار . ولكن حسين فوزي يريد بذلك أن « الولد بلغ الإدراك العقلي » ، وأصبح يميز بين الحقيقة والخيال ، ولم يعد يرى إلا ما تراه عيناه لا ما يوحى له به خياله الصغير ! هذه لمحة فنية بارعة لا تصدر إلا عن ذهن حساس مرهف قادر على أن يصل إلى أعماق الأشياء ؛ فقد رأينا عملية المندل جميعاً ، ولكن الفنان وحده هو الذي يستطيع أن يصل إلى هذا العمق في النظر والتصور .

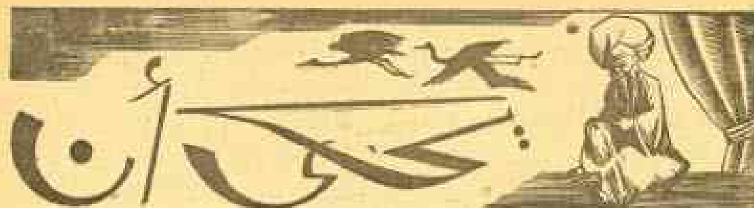
ثم انظر إليه يتحدث عن بيتهوفن ، بل يصل في هرائه ، إن كلامه في هذا الفصل ليدل على أن الأصابع التي جرت بالقلم لا بد قد جرت على أوتار القيثارة بسوناتات الموسيقي العظيم ، وشاركت في عزف رباعياته ، لأن هذه الغزارة في الإحساس لا تصدر عن العقل المفكر ، بل عن القلب النابض . ومن هذا الطراز أحاديثه عن موتسارت وهواة الموسيقى الغربية في مصر ، وما إلى ذلك ، مما لا يصدر إلا عن موسيقي مطبوع وفنان زاخر الإحساس ...

إن أكبر ما يقرب هذا الكتاب من نفسي ويجعلني أعود إلى مطالعة فصوله المرة بعد المرة هي هذه النزعة الغربية التي ينزع إليها الدكتور حسين فوزي فيه ، نزعة صادقة صريحة قوية ، تدل على أن صاحبها يشاركنا الإيمان في أننا لن نصل إلى ما نصبو إليه من رقي إلا إذا اتجهنا وجهة غربية خالصة ، وتخففنا من أعباء هذا التراث الثقيل الذي يشل حركتنا عن السير ويقف بنا في منتصف الطريق ، فلا نحن مستطيعون بعث الماضي لنعيش في ظلاله ، ولا نحن قادرون على أن نلاحق العصر الذي نعيش فيه .

ذلك كتاب فياض بالدوافع والخواطر ، ومهما تكن وجهة نظر قارئه ، ومهما يكن اتجاهه في الحياة ، فهو خارج من قراءته بطائفة من الانفعالات تنفعه أكثر من قراءة أي كتاب مرح يستجدي عطف القراء بالمسح في ذكريات عاطفية ماضية .

حسين مؤنس





هيروتا والطفل

عن لين يوتانج

ترجمة الأديب حسين أحمد أمين

الطفل : أبي ، من الذي سيأتي اليوم ليتناول معك الشاي ؟

هيروتا : وانج شانجهاي .

الطفل : من هو وانج شانجهاي ؟

هيروتا : إنه صيني .

الطفل : هل تتخذ لنفسك أصدقاء من الصينيين ؟ يا أبي لقد أخبرني أن الصينيين أقل [illegible] بكثير .. كما أن مدرسنا قد اعتاد أن يقص علينا كل يوم أحاديث قذرة عن هؤلاء الصينيين .

هيروتا : من الأفضل أن تمسك عن الحديث وتسكت .

الطفل : هل لي أن أتناول معكم الشاي ؟ إني أريد أن أرى وانج شانجهاي .

هيروتا : حسناً . لك أن تأتي على أن تكف عن توجيه الأسئلة .. ومع ذلك فحديثنا اليوم سيدور حول العلاقات بين اليابان والصين ولن تفهم من أمر هذا الحديث شيئاً .

الطفل : هل من الصعب عليّ أن أفهم العلاقات بين اليابان والصين ؟

هيروتا : جداً .

الطفل : لماذا هي مستعصية على الفهم ؟

هيروتا : إننا نريد أن نتخذ منهم أصدقاء، وهم لا يريدون .

الطفل : ولماذا ؟ هل يكرهوننا ؟

هيروتا : نعم .. إن كراهيتهم لنا لأكبر من كراهيتهم للأوربيين .

الطفل : ولم هذا ؟ هل نعاملهم بأقسى مما يعاملهم الأوربيون ؟

هيروتا : [illegible] كففت عن لف هذا الخيط حول أصابعك !

الطفل : [illegible] يكرهوننا بينما نحن نريد أن نصبح [illegible]

هيروتا : من أهل المانشوكو .

الطفل : هل المانشوكو بلادهم أم بلادنا ؟

هيروتا : لقد عدت إلى اللعب بالخيط ثانية — إن بقاياه ستسقط على السجادة فتجعلها قذرة .

الطفل : وما هي المظاهر التي ستتخذها صداقتنا لهم ؟

هيروتا : سنقرضهم المال ونزودهم بالمستشارين .

الطفل : أليس لديهم مستشارون أوربيون ؟ هل تريد أوربا أن تصادق الصين أيضاً ؟ هل ستقرضونها المال ؟

هيروتا : أجل .. ولكن يجب علينا أن نفهم . يجب عليك أن تفهم أنه إذا أقرضت أوربا مالاً للصين فسيستعمرونها .

الطفل : وإذا أقرضنا نحن مالاً للصين ؟

هيروتا : إذا أقرضنا نحن مالاً للصين فإنما نريد من وراء ذلك أن نتخذ منهم أصدقاء، وأن نساعدهم .

الطفل : إذاً ، فالصينيون يفضلون أن يقترضوا منا المال على أن يقترضوه من الأوربيين .

هيروتا : كلا . إنهم لن يقترضوا منا إلا إذا أجبرناهم على ذلك .

الطفل : إن هذا الموقف مضحك حقاً ! ولماذا نجبرهم على أن يتقبلوا منا المعونة إذا كانوا لا يريدونها ؟

هيروتا : لا تضع إصبعك في فمك .. إنك لم تذهب إلى طبيب الأسنان بعد .

الطفل : حسناً جداً يا أبي . ولكن خبرني : لنفرض أنك صيني هل كنت تثق في اليابانيين ؟

هيروتا : إنك ترى يا عزيزي أننا لسنا بأصدقائهم تماماً . ولكننا الآن نريد أن نصادقهم . نريد أن نقرضهم المال ونمدهم بالمستشارين . نريد أن نزود بلادهم بالبوليس ، وأن ننشر فيها النظام .. إننا نريد أن نجعلهم يبصرون حقيقة نياتنا .

الطفل : وما هي حقيقة نياتنا ؟

هيروتا : أيها الأحمق .. لقد أخبرتك سالاً عنها .. إنني أريد أن يعلم وانج شانجهاى الآن أننا نريد مساعدتهم ..

الطفل : وهل وانج شانجهاى أحمق ؟

هيروتا : كيف تجرؤ على هذا القول ؟ إنه رجل مثقف ومن كبار الفقهاء في بلاده .

الطفل : هل أستطيع أن أكون في المستقبل مثل وانج شانجهاى ؟

هيروتا : بإمكانك هذا إذا اجتهدت في دروسك .

الطفل : لنفرض أنى وانج شانجهاى ، فكيف تنوى أن تخبرنى عن نيات بلادنا الحقيقية ؟

هيروتا : سأوضح لك كيفية إمدادنا لكم بالمال والمستشارين العسكريين والبوليس حتى يستتب في بلادكم النظام .

الطفل : خبرنى يا أبي .. لماذا تصرون على منح الصين هذه المعونة ؟ لم لا تتركونها وشأنها ؟

هيروتا : حسناً .. إننا نريد أن نستولى على جميع التجارة الصينية وتطرد الأوربيين من الصين .. نريد أن نبيع لهم منتجاتنا ، وباستطاعتهم شراء الكثير منها ، والتعاون معهم مفيد للغاية ؛ فعند قيام حرب بيننا وبين الروس يجب أن نضم الصين إلى صفوفنا . وليس لدينا الحديد أو القطن أو المطاط . وليس لدينا من الطعام ما يكفى لإمداد الجنود أكثر من اثنى عشر شهراً . وفي الصين ما يسد هذا النقص .. يجب أن نحارب الروسيا في الصين .

الطفل : إنك لن تخبر وانج شانجهاى بكل هذا . أليس كذلك ؟

هيروتا : يا أبله إنى لأحد الديبلوماسيين يجب عليك أن تعلم أننا معشر الديبلوماسيين لا نقول ما نرمى إليه ، ولكننا اعتدنا أن نفهم أكاذيب الآخرين بسرعة ودقة . وليس وانج شانجهاى في حاجة إلى أن أخبره ما أخبرتك إياه .

الطفل : يا للكارثة ! ولكن بم تنوى أن تسمى هذه الحالة ؟

هيروتا : سنسميها لا بد عهد جديد للتعاون بين الصين واليابان على أساس من المنافع المشتركة والتقدم المشترك لأجل الحرص على استتباب السلام في آسيا والعالم أجمع » .

الطفل : أوه .. يا له من شيء مثير ! يا له من شيء عظيم ! من أين تعلمت كل هذا ؟ هل علموك في المدرسة أن تنطق بمثل هذا الحال ؟

هيروتا : هذا هو ما تعلمك مدرستك إياه كل يوم في [illegible] ولكن الإنسان يولد بديبلوماسيته [illegible]

الطفل : أوه ! ما أعظمك يا والدى ! ولكن لنفرض أن وانج شانجهاى رأى كل ما نرمى إليه حقيقة ورفض مساعدة اليابان .. فكيف ستحصل على التجارة الصينية ؟

هيروتا : عند ذلك ينظر الجيش الإمبراطورى في الأمر .

الطفل : ولكن في الاتجاه إلى الجيش ما يحطم الصداقة التي تريد توطيدها بين البلدين .. إن ذلك سيجعلهم يكرهوننا أكثر من ذى قبل .. هل تحب الطريقة التي يتبعها الجيش الإمبراطورى ؟

هيروتا : (بسرعة) هش .. هش . لا تجعل أحداً يسمعك تقول هذا القول . أرى أنه من الخير أن تسرع فتذهب إلى طبيب الأسنان .. وحذار أن ترمى بأطراف قدمك أو الخطوط على الأرض .

(يلتقط الطفل خيطه وسن قده من الأرض ويضعهما في جيبه ثم يغادر الغرفة .

هيروتا يتنفس الصعداء) .

حسين أحمد أمين

خواطر عابرة :

غضب حسناء

قالت مليكة حسن لست أولها
لاشيء أحسن من نوم الخليينا
فقلت كلا ! ولكن الهوى تعب
وبئس نوم الورى نوم المحبينا
قالت : حرام علينا أن تكلمكم !
عاقلنا ؟ يا ترى ؟ هل أنت قاليا ؟
فقلت حاشا ! أرى ما ساءكم أبداً
وكيف أقدر ؟ والقلب يشجيها !
إن الخلاف رأي لا خلاف هوى !
ما أكثر الخلف من خاو وهاويا
فابتسمت حيث شع الورد من فرح
وافتر ثغر جمال بات يسبينا
وتمتمت بدلال الحسن قائلة
عن الخلاف نوم الناس خاليا

• • •

فتاة ؟...

إلي — على رغم الجوى والصد —
أعجبت في حاجبك الأزج
الساحر الخالي دون عمد
والساقي الساحر كل مهج
وفي نهال اللحظ ذات الحد
وفي العيون الباريات الدعج
وحمرة قانية في الخد
إذا تحطرت رحت في الرج
وقدك الصنوبر وفي التمسد
وكفاني مكوثي تحرج
وزحم يهز وسط النهد
فيقصر الرأي بسير لي
وتغيد في غيدك العند
لسحر كل ناظر ولج
أقسم بالجمال أن تعتدي
تغال حسن الرؤى والمهج
تصير قلوب كثرت بالعد
تيه في ظلال هنا الغنج
تبدو ولكن لا حراك تبدي
كأنها عرق بدون مهج
(بغداد) محمد محمود

إلى المتحيرة

دعيني دعيني فقد سالت حتى
وماتت بقلبي أماني الشباب
دعيني ... الهوى في الصبا
ب وحيرى طواه الأسى والعذاب
... أبيت أبيـا
ت وماتت آمالي وماتت رغاب
دعيني فقد ذلت زهرتي
وخف هواي وولى الشباب
دعيني هنا في الجفون الضياء
وهام السنا في ركام التراب
وقد ضج في مقلتي الهوان
وشاء فؤادي جذبها السراب
فرحت أنادي ولا من مجيب
وأدعو ولكن ما من جواب
وضاعت ليالي ضاعت حياتي
وظلي الرئيق خوف الإياب
ورحت أغني وبي النشيد
وأصرخ : هل يا ترى من مآب ؟؟
زهير أحمد